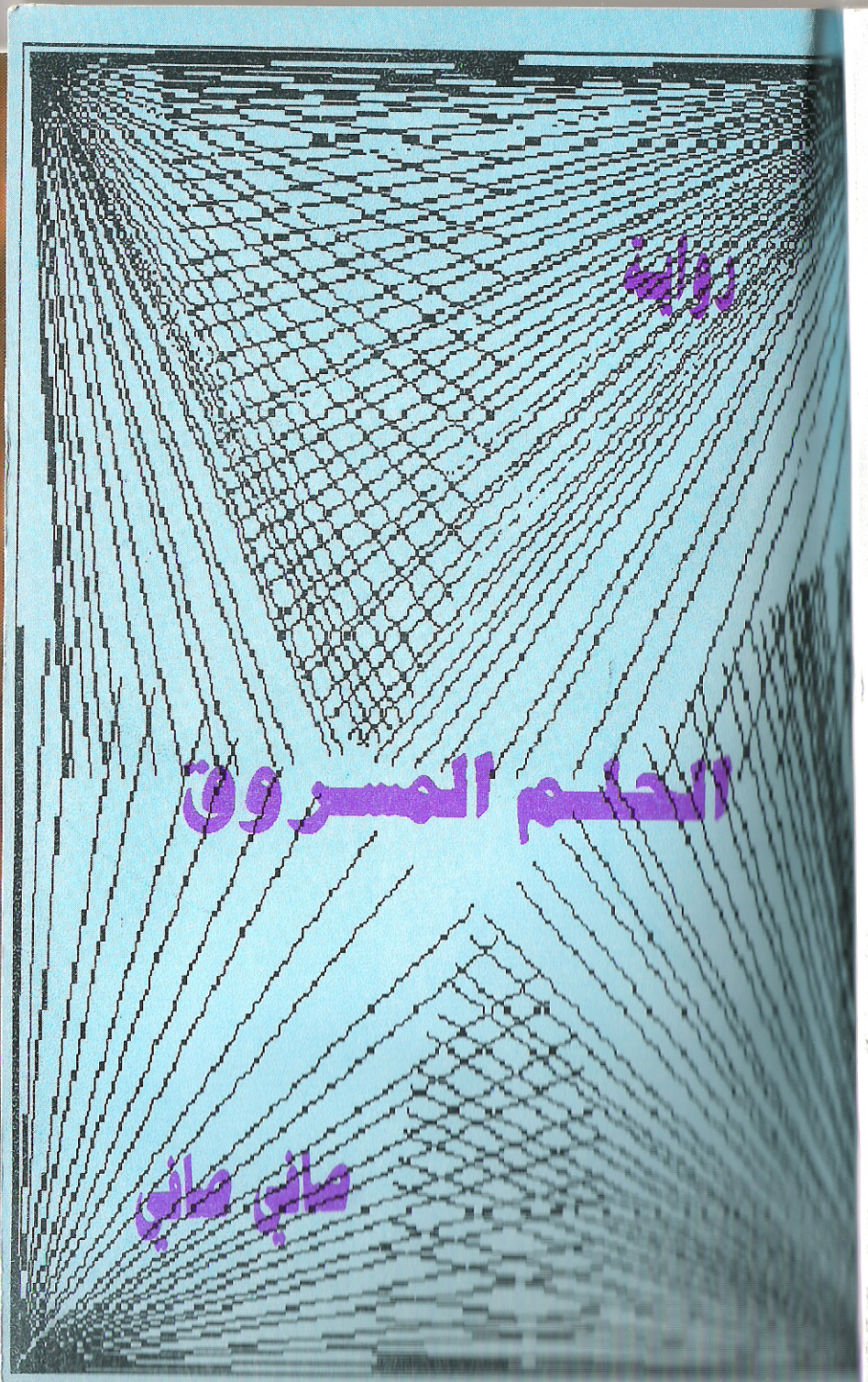

يا شجرة الزيتون، يا جبل الزيتون، يا بلد الزيتون، أنا جزء منك، فلماذا تفصلني عنك، كنت انت اغنيتي وكنت انا اغنيتك، كنت عشيقي وانا عشيقتك، انت الحب، انت الارض وانت الراية، رسموك على دفاترهم، وشموك على جلودهم، تفاخروا بافضالك، تباهوا بحباتك وحلفوا بحياتك، قلت: حضارات سادت ثم بادت، ذهب قوم وجاء قوم، توالت الغزوات وارتدت، سقيت الارض حتى ارتوت، زرعت الاشجار فأثمرت، اسوار عكا صمدت وجبال الخليل شمخت، وسهول مرج ابن عامر امتدت، نبت القمح وثماره حصدت، والزيتون يكبر وحباته نضجت، أكلنا الزيت والزعتر، تأكل منه وتتمختر، تبسمل عليه وتكبر، والشجر يكبر يكبر، في الصيف يحلو ظلك وعندها النسمات تبرك، واسرار الناس تملك، أقسم الله باسمك وأزلنا الظلمة بزيتك، ولعبنا "المخفية" بحبك، فلماذا قتل خالد تحت شجرك! لماذا لم تمد له يدك، يا حافظ الاسرار اطرد الاشرار، كم حملنا زيتك وأشعلناه عند قبور الصالحين، كم خبأنا أوراق محبتنا في خبايا ساقك واغصانك، كم عبثناً صغاراً تحت فيئك ونسماتك، وكم رسمنا اسماءنا وقلوباً على جدران ساقك، لماذا لم تحم خالداً بعد ذلك! لماذا لم تحافظ على العشرة؟! لماذا يا زيتون بلادي؟! لماذا؟ لماذا تضع حاجزاً بيني وبينك؟ لماذا تجلعني أهرب منك؟! لماذا؟! لماذا؟!.

دار الكاتب

الحلم المسروق

رواية

الحلم المسروق

صافي صافي

منشورات دار الكاتب
القدس - ١٩٩٢
تصميم الغلاف
عصوب علاء الدين

الفصل الاول

لم اكن أتصور أنني سأعيش هكذا، فأنا مجرد سجين في هذا البيت في مخيم قدورة، لم أكن أتصور بعد الاثنتي عشرة سنة التي عشتها في الكويت أن حياتي ستكون هكذا، لقد بدأت اكتشف ذاتي اكثر من قبل، كنت أهاجَم كل من يتهمني بالعجرفة وبتأثير حياة الكويت في تصرفاتي، كنت أهاجم من الجميع وخاصة من أخي الشهيد، من المؤكد انه شهيد، كان يقول : يلزمكم فقط مقعد وثير تجلسون عليه وتضعون رجلاً على رجل وأنتم تلبسون الياقات البيضاء وربطات العنق، تجلسون وتحاولون جعل من يجلسون حولكم جماهير، تخطبون فيهم بضع كلمات، وتظنون أن لا أحد غيركم يقدر على صنعها، إنكم فقراء الكويت ورغم ذلك تتغنون باغنيائها وبسياراتهم الفارهة، إنكم تعيشون وهماً زائلاً، ستأتي الأيام وسترى، لقد ذهبت أنت إلى الكويت لتدرس، وها أنت قد انهيت دراستك، طلبت منك أن تعود، لم تعرني انتباهاً، قلت بأنك تود البحث عن عمل وقد وجدته، أربعمائة دينار شهرياً، مرت ثلاث سنوات فاذا بك تأتي وتطلب الزواج، قلت لك : يكفيك غربة، ابحث هنا عن عمل وتزوج. نظرت بتعالٍ للرواتب التي نتقاضاها هنا ولطبيعة سير حياتنا، يومها قلت: يكفينا الأمان الذي نحس به هناك، حيث يتحول ليل الكويت إلى نهار، والسيارات لا تكف عن اللحاق ببعضها طوال السنة، الثلاجة والغسالة والتلفاز والفيديو وكل شيء في متناول يد كل إنسان يعيش في الكويت. أخيراً تزوجت ورزقت ببنت والثاني "على الطريق".

هكذا مرت الايام، لم استمع لكلماتك يا شهيد عائلتنا، هكذا هي

الأيام يا خالد، انت لا تعرف بأن ابنتي ميسون قد توفيت اثناء رجوعي، نعم توفيت هكذا وبكل بساطة، كنت اعتقد بأنني سأرجع إلى الوطن منتصراً، كنت اعتقد بأنني سأخرج من الكويت مرفوع الرأس ومنبسط الجبين، لكني خرجت هارباً، وليت دبري، عدت منهزماً، استصغرت نفسي، كانت حياتي كلها هروباً، بحثت عن زمن أكون فيه قوياً ومهاجماً، لكن الهزائم لاحقتني حتى وأنا في طريق العودة، اعتقدت احياناً بأنني سأعود وأسرتي وسيارتي في "زفة"، نعبر حدود العراق والأردن، والجماهير تقف على جانبي الطريق تهتف لعودتنا ونحن نرفع الأعلام ونطلق "الزامور" على عنانه، نعبر الجسر بدون تفتيش، لكن ماذا أفعل؟! هذه هي حياتي، عملت في وزارة الصحة موظفاً فنياً، كنت أقوم بالمراقبة على عمل الأجهزة الكهربائية الخاصة بالأشعة وكيفية استعمال العناصر المشعة في العلاج، عملت ثماني سنوات إلى أن جاء الثاني من آب، يومها صحوت مبكراً وذهبت إلى العمل، لاحظت أن هناك جيشا كثيراً على طول الطريق الواصل بين السالمية، حيث أسكن، والكويت، كان الوضع يدل على أن هناك شيئاً غريباً قد حدث، السيارات قليلة، لم أشاهد بائعي الجرائد عند الإشارات الضوئية ولم يكن هناك من ينفذ اوامرها غيري، وصلت مكان العمل فاذا بعلم كبير يرتفع فوق البناية وجيش يقف عند مدخلها، نزلت من السيارة وتوجهت إلى البوابة فاذا بأحدهم يسألني : شي تريد عيني؟

- هل هناك شيء؟! جئت إلى العمل.

- اليوم ماكو عمل.

إنهم عراقيون، لم أصدق ذلك، لم استمع لنشرة الأخبار الصباحية، دققت في العلم فاذا به علم العراق بالوانه الاربعة ونجومه الثلاث في وسطه، عُدت إلى البيت، سألتني زوجتي يومها عن ما حدث، اخبرتها، فوجئت، وبدأت من يومها تجمع أغراضنا للرحيل، قضيت الأيام بدون عمل ووجدتها فرصة لأتعرف على ميسون وسط زحام الأحداث، تعلمت أناشيدها وأنشدتها معها، لعبت بألعابها علني أجد استقراراً، شعرت أن لي بيتاً وأولاداً وأن هذا البيت مهدد في استقراراه، البيت ليس بيتي

والحياة ليست حياتي وأنا لست طرفاً استطيع تغيير مساره، صرت أنظر للأثاث الذي في البيت وكأنه ليس ملكي، وكأنني لم ادفع ثمنه، ألعاب ميسون غريبة علي هي الأخرى، فالبطة اللعبة التي احملها ونحن ننشد، "أنا البطة الشلبية" تلاحقني بنظرات عينها، وذيلها يتحرك كما لو كان يشير إلي أن أكف عن المساس بها، الحيطان تحملق فيّ وتحاول لفظي، كل شيء، كل شيء أصبح غريباً عني وأنا غريب عنه، فأنا أعرف منذ اليوم الأول لوصولي إلى الكويت أني مجرد زائر، في البداية كانت مهمتي الحصول على شهادة جامعية والرجوع إلى الوطن، بعدما تخرجت، أغرتني رواتبهم فتقدمت بطلب عمل، حصلت عليه فوجدتها فرصة لجمع بعض المال لئلا أبدأ من الصفر وقت الرجوع، تزوجت وصرت أعاني من تناقض كلما اشتريت شيئاً من لوازم البيت، كانت رغبتي في بناء بيت تتناقض مع وجودي في الكويت، كانت رغبتي في بناء بيت مستقر تقف على أرض غير مستقرة، كنت أعرف بأن بيتي بحاجة لثلاجة فأشتريتها، وبدل من أن أشعر بالفرح كنت أُصاب بالاكتئاب، فأنا أعرف أن هذه الثلاجة ليست لي فعلاً، كنت أعرف بأن يوماً سيأتي لاترك الكويت بقرار مني أو رغماً عني، الشيء الوحيد الذي كنت أرغب في شراءه هو الثياب فهي التي سترحل معي أينما ذهبت، رغم ذلك استطعت بناء بيت، جرتني طبيعة الحياة هناك وأصبحت جزءاً منها بغربتها وأمانها، بواقعيتها وعبثيتها، بحلوها ومرها، بنهمها وعنجهيتها وخشونتها ومرارتها، وبزهوها وفخارها وبساطتها، النتيجة هي أنني صرفت فلوسها فيها ودون أن أحقق الهدف الذي من أجله بقيت هناك، حتى ابنتي ميسون التي أنجبناها هناك فقدناها قبل أن نصل هنا، ميسون هذه احترقت كما احترق وقود السيارة التي جئنا بها، ضاعت ميسون كما ضاعت فلوس الكويت، حياة ميسون توقفت مثلما توقف عمل "مكيف" الهواء، الصحراء هي التي انجبت ميسون وعلى أطرافها فقدت حياتها كما لو كانت هذه الرمال الصفراء مصممة على أن تبقي منتوجها بين حباتها.

انتظرت حتى نهاية الشهر فلم أتلق راتباً، شعرت أن المسألة جدية

فعلاً، وددت لو انتظر لولا المهاتفة التي تلقيتها من نجوى، زوجة خالد، تخبرني باستشهاده، أنا الوحيد الذي يمكنه الرجوع، ولم يتبق لي عمل أقوم به، جاسم، مدير دائرتنا هرب منذ الأيام الأولى، قال : اذا كانت دولتنا تنتهك حرمتها فلا قيمة لوقاية الناس من الأشعة واخطارها. تحدثت مع أخي عبد القادر، فشجعني على زيارة عائلة خالد ولكنه لم يؤيد رحيلي، كنت متردداً أنا الأخر، فلم تزل الكويت تغريني رغم مستقبلها الغامض، وكان الاستقرار في رام الله كذلك يغريني رغم عدم توفر فرصة عمل واضحة لي، حملت ما خف من الثياب وركبنا سيارتنا متوجهين إلى الأردن، حرارة صيف الكويت كانت تلاحقنا في اوائل ايلول، لم نعهد مثل هذه الحرارة والرطوبة من قبل، أحسست أن ميسون متوعكة بعض الشيء، ولكن كيف لي أن أعرف أنها كانت مريضة لهذه الدرجة، ذهبت فوراً إلى عيادة وزارة الصحة فلم أجد الطبيب، أعطاني الممرض تحاميل لتخفيض درجة حرارتها، وسافرت، كنت أنظر نحوها فأجدها صفراء الوجه واليدين، لم تكن فيها اية حيوية، أسرعت في السير رغم المخاطر التي تتهددنا من قطاع الطرقات، أشتدت الحرارة اكثر وارتفعت معها حرارة ميسون، اهرب من اصفرار الصحراء فأجد اصفرار ميسون أمامي، الصحراء تلاحقني في ذاتي، وبينما كنت أقود السيارة كانت أمها تُلقي بالكمادات الباردة على رأسها، لم تعد ميسون تتناول أي نوع من الطعام، ولم يساعدني تخصصي وعملي طيلة هذه السنوات في وزارة الصحة على اشفائها أو عمل أي شيء لتخفيف آلامها، مرضها لا يحتاج لتخصصي، كل الأجهزة التي خبرتها ودققت في مدى فاعليتها وقدرتها على المعالجة والكشف عن المرض تركتها ورائي بلا فائدة ولا حول ولا قوة، كل الأجهزة التي عملت عليها كانت مستوردة من امريكا وفرنسا والمانيا واليابان ولا استطيع استخدام خبرتي في تشغيلها على إنقاذ ميسون، وبدلاً من ذلك أُصبت بخيبة أمل، أحسست بأنني أنا المريض، أنا العاجز، أنا الذي لا يملك سوى الضغط على دواسة البنزين ليحترق عله ينقذني لأصل إلى أرض الوطن، ما أسوأ أن تجد نفسك أمام خيار واحد. ما أسوأ أن تجد

قدمك تعمل اكثر من عقلك.... أنا الذي جبت الكويت شارعاً شارعاً، وزرت العيادات والمشافي واحداً واحداً، أنا الذي فحصت أجهزتها حتى يستطيع سكان الكويت وأهلها الكشف ومعالجة أمراض الصدر والمعدة والكسور وحتى مرض السرطان، أنا الذي فعلت كل ذلك ولا استيطع الآن سوى اللحاق بالشارع علني أجد له نهاية.

وصلت إلى نقطة الرويشد في اليوم التالي، عرضناها على الطبيب، اهتموا بها كثيراً، نقلوها في سيارة إسعاف إلى مشفى المفرق، كانت سيارة الإسعاف تنهب الأرض نهباً، حاولت اللحاق بها دون فائدة، كانت المسافة بيننا تتسع وضوؤها يبتعد وصوتها يخفت وجسمها تأكله الصحراء، مرت الدقائق سريعة، لم أعر سيارات الشرطة اللاحقة بنا اهتماماً، لاحظت دورية جيش ذلك فأوقفتنا بصعوبة، هجموا علينا هم والشرطة من كل جانب، أمسكوني والقوا بي مقيد اليدين ووجهي ملطخ برمال الصحراء، صرت ألهث، شعرت بالحرارة في عيني تكاد تحرقها، لم أكن أحس برجلي، صرخوا في: ماذا تخبىء في سيارتك يا كلب؟

لم يساعد لهاثي وتعبي والوضع النفسي المتناقض لإن أقول شيئاً سوى: ابنتي!

فتشوا السيارة ببطء، صرخت ودموعي تبلل الرمل، عرفوا أنني أحمل الجنسية الأردنية، أنهضوني وحققوا معي تحقيقاً قصيراً ثم تركوني بعد أن نصحوني بعدم التسرع.

لم أدر بعدها ماذا أفعل، كدت ألقي بنفسي هناك في الصحراء، هربت منها ولا زالت تلاحقني بأشباحها، لم اكن متأكداً بانني استطيع قيادة السيارة ثانية، وبشعور ممزوج بالحزن واليأس والغضب وحب الحياة، ركبت السيارة، قدتها ببطء، لم يكن ذلك بسبب الإنذار والعقوبة التي تلقيتها، بل بسبب اهتزاز قدمي، فكرت: لن تساعد سرعتي في القيادة ميسون، وربما تودي بحياة الطفل في بطن زوجتي، أنا الذي كنت سبب صراخها وعراكها مع الجنود والشرطة، لم تُتح لي الفرصة لأسألها عن ما حدث معها، ودون أن نتكلم تخيلت أنها تفكر في ميسون بشعرها الأملس وبشرتها البيضاء التي لفحتها شمس الكويت،

وبالأناشيد التي بدأت بترددها : "بابا جابلي هدية..."، "أرنب نط، راح على الشط..." وكانت تلفظ الشط "سط"، وها هي "تسط سطاً" بحرارة الصحراء وغربتها، وبينما رحت تائهاً، وجدت السيارة تنهب الأرض من جديد، احتجت لدقائق أخرى لأسأل أهالي المفرق عن المشفى، وصلته، هيأت نفسي لعناقها ومداعبتها، جفت دموعي ودموع زوجتي مع الرياح التي بدأت أحسها تأتي من الغرب، انطلقت تاركاً زوجتي ورائي لاستطلع الخبر فاذا به مؤلم، قرفصت على الأرض فاذا بأمها تصيح وتقع أرضاً، نهضت مسرعاً وأسرع الممرضون نحوها، نقلوها إلى غرفة الانعاش، وهكذا توجهت مشاعري نحو زوجتي .

شعرت بالعزاء لإن ميسون لم تمت في الكويت، لقد ماتت على مشارف الوطن، لقد بقينا أحياءً أنا وزوجتي وابني الذي في بطنها، كنت أخاف الموت في الكويت، كان الموت كابوساً مرافقاً لي في الليل وفي النهار، خفت على نفسي حتى وأنا ميت، لم أكن اتصور أن أعيش ميتاً ويدفنوني هناك، لم يكن البعد عن الوطن وحده هو السبب، بل اشد ما أرقني هو هذه الرمال الصفراء وهي تكتنز الحرارة بين حباتها، لم اكن استطيع أن أطأ هذه الرمال بقدمي، اشفقت على العمال الايرانيين وهم يعملون ليل نهار بين الرمال. فهل هذه الرمال هي التي ستحتضنني وأتعفن بين ثنياتها ويختلط رفاتي البني اللون باللون الاصفر. تمنيت أن اصل الوطن واصبح بلون ترابه حيث لا أشعر بالغربة ولا بالاغتراب، وهكذا انبعثت فيّ الحياة من جديد.

لم أكن أتصور بأنني سأعيش هكذا رغم كلمات التطمين التي أسمعها دوماً: أحمد ربك أنك لم تنتظر اكثر من أربعة شهور لايجاد عمل، احمد ربك لانك ما زلت شاباً في مقتبل عمرك، ولا تملك عائلة كبيرة، انظر إلى أخيك عبد القادر والذي تعرف أوضاعه جيداً، يعمل في الكويت منذ ما يقارب الثلاثين عاماً، اولاده وبناته كلهم في الجامعات، هذا الرجل لا يمكن أن يبدأ حياته من جديد مثلك، أنت لم تبدأ بعد، أحمد ربك لانك وجدت بيتاً بدون الحاجة لدفع أجرته، إنه بيت أحد أقربائك الذي ترك المخيم منذ بداية الانتفاضة إلى مكان آخر،

فالاقتحامات المتتالية لا تهدأ، ضحى بهذا البيت مؤقتاً مقابل أن يحافظ على أولاده الشباب من الاعتقال بسبب أو بدون سبب، هذا البيت يفي بالحاجة، فيه بعض الأثاث بل والضروري منه، احمد ربك لإنك وجدت فرصة عمل بدون أن تحتاج معونة وتصبح عالة على غيرك.

حمدت ربي على كل ذلك رغم أن هذه ليست هي الحياة التي حلمت بها، كل ما فعلته هو أنني حشرت نفسي أنا وزوجتي في البيت ولم يكن من السهولة الاختلاط بجيراننا في المخيم، إنهم يعيشون علاقات اجتماعية مفتوحة إلى أقصى الحدود بمرها وحلوها، وأنا لا استطيع حتى أن استمع للاغنية التي اريدها، فاصوات المسجلات والمذياعات تأتيني من كل جانب في البيت، تخترقه كأنها في سباق بقدرتها على التداخل والاختلاط، أغلق نافذة من هنا فيأتيني الصوت من نافذة هناك، أغلق جميع النوافذ فيأتيني الصوت من تحت ومن فوق، لم استطع منعه، من الصعب أن يعيش الإنسان منعزلاً وهو في مخيم، فاما أن تندمج بالكامل في حياته بصغيرها وكبيرها وإما أن يلفظك المخيم خارجه، العلاقات الاجتماعية تفرض عليك ولا تستيطع منعها، فالجيران لا تملك قراراً في اختيارهم، فهم كمن سقطوا من السماء ولا تملك سوى التعايش معهم، الكل يفرض حياة الكل على الجزء والكل، الكل يريد أن يهرب من واقعه إلى واقع آخر فيجد نفسه مثل غيره في الأحلام والتطلعات، الكل يعترف بأن هذه الحياة هنا ليست سوى معبر لحياة أخرى، ولكنه لا يعرف بالضبط ماذا ستكون، حزنهم على الميت يكون مضاعفاً حين يحدث في المخيم، ظن جميعهم بأنهم سيمكثون هنا أياماً، وامتدت الأيام وطالت السنوات وانتقل الحلم من الآباء للاولاد وللاحفاد حتى أصبح كابوساً، لا يستطيع أحدهم أن يعالج مشكلته الخاصة وحده، ينشرها بالضبط كما ينشر الغسيل أمام البيوت وعلى الأسطح، فتلوكها الألسن وتأخذها وتضيف عليها كما الغبار الذي يلوث ما نظف من الثياب، فيصبح الفرد أغنية حزينة مسلية على الشفاة، وإذا ما قرر أحدهم أن يختزن مشكلته في ذاكرته تجد ألف وسيلة ووسيلة لتزيل قشرتها وتعمل على إشاعتها، وسائل كشف الاسرار

كثيرة، يشترك فيها الرجال والنساء والأطفال، وقراءة الكف وقراءة فناجين القهوة وجلسات الأزقة، والحدس والتقرب والتباعد، والتشفي والإشفاق، والتفاخر بالجيرة والعلاقات الخاصة والتشكي والمعاناة والمرارة، وظلم الكل للكل ومحبة الكل للكل وفقر الكل من خارج الكل، ليس هذا فقط، فنساء المخيم يجلسن في الأزقة يتحدثن عن كل شيء : ماذا طبخت؟ ماذا اشتريت؟ هل غسلت؟ يبدو أنك استحممت هذه الليلة؟ كيف كانت الليلة؟... أما الاطفال فيتصايحون، يلعبون ويلقون الشتائم من كل الأنواع والأجناس.

حين جئت إلى المخيم، جاء الجيران والأقارب يزورونني، جاءوا دون موعد مسبق مثلما كان يحدث في الكويت، جاءوا يحملون في أيديهم هدايا بسيطة، سلّموا علي وعلى زوجتي وجلسنا معاً، بينما ما كان يحدث هناك في الكويت شيء مختلف، إذ كان من الصعب أن أزور أحدهم أو يزورني إلا بموعد، أذكر أنني قررت زيارة ابن عمي في أحد الأيام، كنت لا أزال أعزباً، ودون موعد مسبق وجدت نفسي أقرع جرس بيته، كنت أود أن أحطم هذه العلاقات بشكلها الزائف والمصطنع، وجدت البيت غير مرتب وغير مهيء لاستقبال أحد وكأن البيت يُرتب وينظم فقط قبل الزيارة بقليل، اكتشفت عفوية الحياة عندهم وعلى حين غفلة فرحت لهذا العفوية وهذه البساطة، ابتسمت في نفسي لكني وجدت ابن عمي هذا ينظر نحوي وكأنه يريد اكتشاف رد فعلي، حاولت أن اضبط هذا الفرح حتى لا يفسر الأمور بطريقة مختلفة، فجأة، سمعت صوته يقول : هل حدث شيء للأهل هنا أو في الوطن؟

- لا، لم يحدث شيء، جئت لاشرب معك كأساً من الشاي.

لم يصدقني، استحلفني إن كنت أخفي أمراً لمكروه هنا او هناك، شربنا الشاي معاً وهو غير مصدق لغرض زيارتي، ظل متشككاً من سبب زيارتي حتى اللحظة الأخيرة وأنا أودعه، حزنت لتأثير حياة الكويت عليه، يبدو أنني لم استطع تحطيم ما وددت تحطيمه ووجدت نفسي مقاداً إليها كما قيد غيري قبلي، وجدت نفسي إنساناً آخر غير الذي كنت وغير الذي أود أن اكونه، عجبت أيضاً كيف ان هذه العلاقات

تتغير وتصبح اكثر حميمية حينما نلتقي في أرض الوطن، هكذا وببساطة أصبح أنا لست الذي كنته وكأن العلاقات تتغير فجأة بتغير المكان، غالباً لا يسلم الرجال على النساء بالايدي هناك، يجلس الرجال معاً وتجلس النساء في مكان آخر، ومن خلف باب الصالون تنادي الزوجة زوجها او تطلق إشارة لإن يأتي ويأخذ حصة الرجال من الشاي والقهوة، الوضع هنا يختلف فالكل يجلس في نفس المكان وكأنهم عائلة واحدة، يتحدثون في كل الأمور ببساطة، يستخدمون ألفاظاً أتمنع عن لفظها حتى أمام زوجتي، يتكلمون بصوت عالٍ عن فقرهم ووضعهم المأساوي وبفخر في معظم الأحيان، حدّثنا كل منهم عن الانتفاضة وعن المواجهات التي قام بها مع الجيش، كل منهم يحمل عشرات القصص عن نفسه وعن جيرانه، وبقدر ما كانت قصصهم تخيفني كانت تبعث فيّ القوة والشجاعة، خفت من الليل واكتشفت أن النهار يخيف أيضاً، إذ كلما مرت دورية جيش تنهال عليها الحجارة من كل جانب، كنت انزوي في غرفة داخلية، طرقوا الباب مرة ولم افتحه لهم، خفت، طرقوه بشدة، كادوا يكسرونه، ترددت في النهوض بشعور من الخوف والعجز والمواجهة والتعايش مع الواقع، مضت الثواني طويلاً حتى ابتعدوا، حين ذهبوا سمعت أصوات الجيران في الخارج، وجدتهم يضحكون وكأنهم في حفلة، سألتهم عن ما حدث، قالوا: جاءوا يبحثون عن شباب.

- وهل دخلوا بيوتكم؟! سألت متخوفاً.

- نعم.

- هل أمسكوا الشباب ؟! صرخت مرتبكاً.

- لا، كل راح في طريقه.

عجبت ليس بسبب الإجابات نفسها، بل لطريقتهم في الرد على الأسئلة، لقد بسّطوا الأمور اكثر مما يلزم، كنت احاول محاصرة دقات قلبي كمن يسافر بالطائرة لأول مرة، لكنهم يهبطون بي إلى أسفل، إلى الواقع الحقيقي الذي يعيشونه ولم اكن أعرفه، وبقدر ما حملت إجاباتهم معاني الطمأنينة والود، حملت في ثنياتها الاستهزاء من

الوضع النفسي الذي أعيشه، كنت أحس ذلك في نظراتهم حيناً، وفي ابتساماتهم وضحكاتهم حيناً، وفي حركات أيديهم وأجسادهم وحتى أرجلهم احياناً أخرى، تدّخل الاطفال للرد على اسئلة أخرى ولم يجد أهاليهم ما يسيء إليّ او إليهم، ارتبكت، فبينما كان سيل من الأسئلة تدور في رأسي : كيف طرقوا الباب؟! ماذا فعلتم قبل دخولهم؟! كيف فتحتم الباب؟! كم كان عددهم ؟! ماذا فعل كل منهم؟! ماذا فعل الكبار؟! ماذا فعل الصغار؟! ماذا سألوكم؟! كيف اجبتموهم؟!...الخ. فبينما كان هذا السيل يضغط على لساني لترجمتها، إلا أنني كنت أكبح جماح بعضها لئلا يظنوا انني ساذج أو ربما خائف، حاولت أن أجعل من طريقة طرح الاسئلة اكثر طبيعية، أو أحاول تركهم هكذا، كل يتكلم عن نفسه وعن ما حدث له دون الحاجة إلى أسئلة، وددت أن يسردون قصصهم بتفاصيلها، يحكون عن مشاعرهم والوقوف عند الصغيرة والكبيرة، لكني ادركت أن صمتي هو الآخر يعكس ارتباكاً وخوفاً، وضعت يدي على صدري وطوقت رجلي ببعضهما، وبحثت عن لعابي، وطرحت اسئلة اخرى مفكراً فيما يمكن أن يحدث معي في اقتحامات أخرى، فلا يمكنني أن اعيش حياة غير التي يعيشها هؤلاء، انهم بشر مثلي، ومن العيب ان ارتد في زوايا البيت بينما هم يعيشون حياتهم هكذا. هل يمكنني أن اكون مثلهم؟! لا بد أن أجرّب وانخرط في تفاصيل حياتهم.

جاءوا في نهار يوم آخر، كنت في انتظارهم، فتحت الباب، قال أحدهم : نريد تفتيش البيت.

- فتشوه. أجبت وأنا احاول منع ظهور أية علامة لارتباكي.
- إذا كان في البيت شيء ممنوع، اعطنا إياه ولن نفتشه.
- لا يوجد شيء، فأنا جئت من الكويت منذ فترة قصيرة.
- آه، يعني كنت عند صدام.

وبدأوا باعادة نفس الأسئلة التي طُرحت علي وأنا اعبر الجسر.

صِرت اكثر قدرة على التصرف رغم خوفي، فهم لا يعرفونني جيداً، ويعتقدون بأن كل من يعيش في المخيم لا يستحق الحياة،

يعاملونهم مثلما يعاملون الحيوانات، يكسرون الأبواب والأيدي والرؤوس وكل ما تطاله أيديهم ويخرجون، في ليلة رأسة السنة جاءوا الساعة الثامنة مساءً، أمرونا بالتجمع عند دوار الساعة، قسمونا الى مجموعات لإزالة الشعارات، كان شارع يافا مضاءً، لم يكلفني ذلك جهداً، فالأسوار قليلة والشعارات محدودة، ولولا البرودة لبقيت هناك فترة أطول، فأنا أزيل الشعارات من شارع المنتزة في مناسبة ميلاد جديدة، إذ أزلت شعاراً كان يقول : «الميلاد يتجدد كل عام ونحن نصبو إلى السلام».

لم أتصور قط انني ساعيش حياة كهذه، فانا الآن مجرد سجين في بيتي مثل الآخرين، كان كل الناس بما في ذلك أبناء المخيم يعتقدون ان الحرب قادمة لا محالة، بينما كنت أرى غير ذلك، وعلى ضوء الاخبار التي سمعتها وسمعها غيري بان الإدارة الامريكية كانت على علم بالنوايا العراقية، فلم أكن اعتقد أن الحرب آتية، اعتقدت ان القوات الامريكية والحليفة جاءتها الفرصة لتزرع قواعد برية وبحرية وجوية في منطقة الخليج لضمان تدفق النفط إلى اسواقها وبالسعر الذي تريد، شاهدنا قوافل الجنود العراقيين وكنا نصرخ بنوع من العجب والفخر والتهكم والمرارة : وصل الكيماوي وصل. حتى أصبحت "شيفرة" يتبادلها كل الذين أعرفهم، ولكني رأيت في المقابل القوات البرية والجنود الذين يتفيأون في ظل دبابتهم حيث تكون درجة الحرارة خمسين مئوية، رأيتهم يغسلون ثيابهم في مياه البحر ويلبسونها ثانية، رايتهم جنوداً بالفعل، بمعنويات لم ار مثلها. نزلت وتجولت بينهم، وبمثل ما كنت أتخيلهم بدائيين ومتوحشين، رأيتهم صادقين وبسطاء، اصيلين ومصممين، وضعت يديّ في جيوبي ورحت افكر في السبب الذي عملت من اجله، اقترب احد الضباط مني وقال : يبدو أنك فلسطيني؟!

هززت رأسي موافقاً، قال : هل تفكر في شيء ما عيني؟!

- نعم، ماذا لو توجهت هذه القوات نحو فلسطين بدلاً من الكويت؟!
- فلسطين في القلب وعلى الرأس عيني، سيأتي دورها وسنحررها إن

شاءالله بعد ان نتخلص من هؤلاء الأوباش، هؤلاء الأوباش يمنعوننا من تحقيق مطلبكم الآن، نحن أيضاً مهددون منهم، لقد تخلصنا من وبش الشمال واليوم تخلصنا من وبش الشرق، بقي ان نتخلص من وبش الجنوب، وعندها سنتوجه غرباً إن شاءالله.

لم ارغب بتصديقه، ابتسمت وذهبت، هكذا اذن، الكل اوباش، هل تخلصوا فعلاً من وبش الشمال والشرق؟! أشك في ذلك؟ وذا كان صحيحاً ما يقول هذا الضابط، لماذا يكون الشمال قبل الشرق؟! ولماذا يكون الشرق قبل الجنوب، ولماذا يكون الشرق والشمال والجنوب قبل الغرب؟! هل هكذا بدأت الحياة على هذه الأرض؟؟ أين هبط آدم؟! وهل توجه أولاً الى الشمال فالشرق؟! وأيهما كان أولاً الشرق ام الغرب؟! أيهما كان أولاً الليل أم النهار؟! واذا كانت الشمس هي اولاً والارض هي ثانياً فهل ابتدأت الحياة على هذه الارض في النهار ام في الليل!؟ هل كانت الشمس حينها تشرق علينا ام تغيب عنا؟! الغرب والشرق يؤرقنا، والشمال والجنوب يفزعنا، لا استطيع ان اشغل نفسي بكل صغيرة وكبيرة في هذه الحياة، وحتى أعيش تلك الأيام بعدها في الكويت اضطررت ان أتاجر بالخضار، احضرها من البصرة وابيعها في الكويت، ركب معي احد الجنود، سألته : كيف دخلتم الكويت بهذه السرعة؟!

- ابو عدي طلب ذلك، والله لو طلب السعودية ما رفضنا له طلباً.

- ومن أجل ماذا دخلتم الكويت؟

قال بعد أن تنهد : اولادي لا يرون الفاكهة إلا قليلاً بينما اولاد الكويت ياكلون التفاح والموز من كل صنف، هل تجد في ذلك عدلاً؟!

لم أجبه، فالعدل مفقود في كل مكان بما في ذلك الولايات المتحدة التي تدعي ليل نهار بالعدل والحق والانسانية، لكني تساءلت في نفسي : وهل كان يجب لامثالي أن يدفعوا ثمن حصول الأطفال العراقيين على التفاح والموز! هل كان يحب أن ادفع ثمن البذخ والترف الذي يعيشه الكويتيون كامراء!؟!.

لقد دفع اجدادي الثمن ودفع والداي الثمن وها أنذا أدفع الثمن أيضاً، حتى ابنتي ميسون دفعت الثمن، إلى متى سنظل ندفع الثمن،

هناك الكثير من الدول الاصطناعية ولم يجتاجها التاريخ بعد، هل يُبقي عصر الصناعة على مثل تلك الدول؟!، الكويت إحداها، أية دولة هذه التي يعيش فيها غرباء اضعاف عدد سكانها الاصليين، أنا نفسي كنت أسمى غريباً، انني "اينبي" على حد قولهم وبذلك تساويت مع الاوروبيين والامريكان والافارقة والاسيويين، أنا نفسي واجهت تبجحهم وتحملت الكثير من أجل لقمة العيش، حين ذهبت الى الكويت قرأت مقالاً في الجريدة تحت عنوان : أنا راجع لبلادي، يقول : جئت من لبنان قبل أشهر معدودة، هربت من الموت لكنني سأرحل، صار أولادي يتعودون على اشياء لم أرغب حتى التفكير فيها، تعلموا في المدرسة كل شيء يدل على هذا البلد، صاروا يقولون : هذا مصري فولي، هذا فلسطيني حمصي، هذا هندي ناسي وهذا فلبيني سلّيني،.. الخ، صاروا يقولون هذه بنت وهذا ولد، وحتى لا اسمع اكثر من ذلك قررت أن أرحل.

التقيت بأحد المصريين والذين يتهمون بالمحاباة، قال : أنا أعيش في الكويت منذ عشر سنوات، الكويت مثل حبة الجوز، يدخلها "الاجانب" العرب مثل السوس، يدخلون من منفذ صغير، يأكلون ويشربون وحين يقررون الخروج يجدون ان المنفذ الذي دخلوا منه لا يتسع لكروشهم، يعاودون الجري في الداخل ليخرجوا منها كما دخلوها، هذه هي الكويت.

لم أصدق ما قالوه إلا بعد أن رايت كل شيء بنفسي، تأخرت يوماً في الجامعة لاحضر حفلاً، انتظرت عند محطة الباصات دون فائدة، اشرت بيدي للسيارات المارة، توقفت سيارة من نوع "بونتياك" كبيرة، وأنا الذي بدأت اتعرف على انواعها، فتحت الباب فاذا به رجل كويتي يقارب الثلاثين عاماً، ضخم الجثة، أسود البشرة، محمر العينين وغليظ الشفتين، يستمع لاغنية "مبارك العرس للاثنين" لعائشة المرطة، سألته: هل أنت ذاهب إلى الشويخ؟ قهقه وقال : لا والله، أنا لست ذاهباً هناك، لكن إذا أردت أن نذهب لنستمتع فهيا بنا إلى أي مكان تريد، ومن الأفضل ان نذهب الى المزرعة. قلت له : مع السلامة. وأغلقت الباب، سألت بعدها زملائي عن "المزرعة"، فقالوا : إنها مكان بعيد عن

الأحياء السكنية، تستخدم كغطاء للآثام التي يقومون بها مع نساء او مع رجال.

صرت احقد عليهم واكرههم، اهتممت بتفاهاتهم وممارساتهم وردود الفعل عليهما، سمعت أن احد الفدائيين الذين رحلوا من الاردن عام ٧٠ قرر أن يعود بعد حملة الإعفاء التي جرت في الاردن، نزل إلى الشوارع يتحرش بالكويتيين واحداً واحداً، القي القبض عليه وأبعد خارجها.

لم يكن من السهولة الاندماج في تلك الحياة، لم أجد مبرراً كافياً لهذه العلاقة التناحرية، يعتقد "الاجانب" أن لهم الفضل في بناء الكويت الحديثة وبالتالي يجب ان ينالوا حقوقاً اكثر، بينما يعتقد الكويتيون في معظم قطاعاتهم ان هؤلاء "الاجانب" جاءوا ليسرقوا اموال الكويت وان لهم المبرر في عمل اي شيء ضدهم، حتى جاسم مدير قسمنا كان يستعمل الهاتف لاصطياد البنات ويوقعهن في شباك اعجابه المصطنع، يستدرجهن الى مكتبه بالابتزاز حيناً وبالاغراء حينا آخر، كانت هواتف دائرة عملنا تسمح لنا بالتنصت على مكالمات الآخرين، وكنا نترك عملنا في المكاتب كلما عرفنا ان له مكالمة من فتاة، أو كلما حاول هو ان يستعمل الهاتف، صرنا نعرف مواعيده، واذا ما خرج يخرج احدنا لمراقبته، متطفلاً ليعرف من هي الفتاة التي سيخرج معها، وحدث مرة ان جاء بفتاة وادخلها الى احدى غرف المختبرات وكأنه يعرفها على أجزاء القسم، ورايناهما يتعانقان ويتبادلان القبلات، لكن اكثر ما كان يصيبني بالتقزز والقرف هو عندما يدخل الى المرحاض، اذ كانت الغرف مفصولة عن بعضها بالاسبست والزجاج والألمنيوم، كنا بسهولة نستطيع سماع اصوات مقززة ومقرفة، وبينما كانت تأتي من الجانب الآخر ضحكات الموظفين وصيحاتهم كنت أهرب خارجاً حتى ينتهي.

كان يحاول التصرف أمامنا كرئيس دائرة، يحاول أن لا يبتسم وان يبدي حزماً، لكن عدم معرفته بتفاصيل عملنا كان يرده، كنا نطالبه دوماً بأن نحصل على علاوات اكثر، لكن مسؤوليه لم يكونوا راضين عنه تماماً، إذ اعلن هو الآخر اضراباً عن العمل حتى يزيدوا راتبه،

وعلمنا من زملاء كويتيين انه يذهب ليدير اعماله التجارية وليراقب بناء فيلته الجديدة، كان قصير القامة ممتلىء الجسد، اطلق لحيته في منتصفها لأسفل وكلما غير من حركته أمسك بها فنهتف في داخلنا : "تفو".

لم يكن من السهولة التعرف على حياتهم من الداخل، فمن الصعب إقامة علاقة اجتماعية مع إحدى العائلات، تخشى ان يزورك أحدهم فيفسد عليك حياتك الخاصة وتصبح محط أنظار جيرانك الذين ينظرون اليك عندها بريبة وتشكك وفساد الاخلاق، ولا تستطيع زيارته في بيته، علاقات العمل تمنعك من إقامة علاقة اجتماعية متكافئة، ضاحية "عبد الله السالم" لا تستطيع دخولها بسهولة، إنها مثل المستوطنات هنا، اذا دخلتها تجد كل الانظار تتجه نحوك ويمكن ان تتعرض للضرب بسبب او بدونه، فالاستفزازات والحركشة تضعك في المواجهة وبالتالي اما التصدي واما الاستسلام الذليل، الشتائم والاهانات تسمعها في الشارع وفي العمل، تحدوك غالباً رغبة في التصدي والانتقام، الغضب يغلي في الصدور، سمعت مرة طالباً كويتياً يقول : فلسطيني حمصي. يومها أمسكت به في حرم الجامعة، نزعت عقاله ودسته بقدمي في انتظار رد فعله، لم يرد، عرفت بعدها بأنه لم ينل الجنسية بعد، فهو من أصل قطري، فقلت في نفسي لابأس، فهذه خطوة أولى ستتبعها خطوات.

مرت الأيام والسنوات حتى قررت أنا وزميلاي الذهاب إلى السينما، اخترنا سينما «غرناطة»، وصلنا قبل الموعد، انتظر أحد الزميليين عند شباك التذاكر بينما رحت أنا والآخر نتمشى في الساحة، توافد الناس عند شباك التذاكر وكان بينهم الكثير من الكويتين، وبينما نحن كذلك سمعنا ضجة، أسرعنا باتجاه المصطفين فاذا بزميلنا يتلقى الضرب بالايدي والعقالات، كان كما الفريسة السهلة لهم جميعاً، اخترقنا الدائرة بصعوبة لتخليصه، نالتنا الضربات من الجمع الكبير للدشاديش البيضاء، أخيراً استطعنا تخليصه لكن الدشاديش لحقت به، أوقف سيارة "وانيت" وقبل أن تتحرك كانت جموع سيارات الدشاديش تحيط

به، وبعد تهديد وشتم ووعيد افلتوه، كانت قد وقعت نظاراته، رجعت لاحضارها من ساحة "المعركة"، سمعت تعليقات كثيرة من الدشاديش التي التفت حولي.

- انتم جبناء

- نحن لسنا بجبناء، وانت تعرف ذلك. قلت وانا انظر باتجاه الصوت.

- وإلا لماذا هربتم؟

- لم نهرب، لقد اجتمع اكثر من خمسين شخصاً على زميلنا ولم يكن أمامه سوى الهرب.

- ولماذا لم تساعدوا زميلكم ؟!

- أنت تعرف انها معركة خاسرة وليس بهذه الطريقة فقط تُحل المشاكل.

- أية طريقة تقصدها إذن؟!

- لغة الحوار والتفاهم. قلتها رغم عدم اقتناعي بها.

- ليس لدينا سوى لغة الضرب.

كنت وقد وجدت النظارات محطمة بين الأرجل، اخذتها وعدت انا وزميلي الى البيت دون ان نشاهد الفيلم. لكني رحت متفكراً في أفلام مشابهة كنت قد شاهدتها في التلفاز، كانت تلك الافلام تمثل الصراع على الحياة في غابات الحيوانات، وكلما شاهدت احداها شعرت بالتقزز والقرف، فلم استطع نسيان كيف تهاجم الكلاب البرية غزالاً او ماعزاً او ثوراً كبيراً، تهاجمه من كل جانب وتمسك به من مؤخرته وشفتيه، تشده نحو الأرض حتى تنهار قواه وتمزقه قطعاً من اللحم وهو يشهد على ذلك حتى يلفظ أنفاسه، ما شاهدته اليوم كان كذلك وإن كان الصراع هذه المرة بين البشر، اصابني شعور بالقرف وكدت اتقيأ ولم أعرف للنوم طعماً مدة يوميين متتاليين، واصابتني احلام كوابيس في الليلتين الاخريين، هاجمني نمرٌ في احداها، أمسك بي من رقبتي بانيابه، حاولت ابعاده بيدي ورجلي فلم استطع، شعرت انني سأختنق، صرت اصرخ بأعلى صوتي، حركت جسدي بكل قوة فاذا بي استيقظ، وفي كابوس آخر هاجمتني القطط، أمسكت بالحجارة فابتعدت قليلاً ولكن

اعداداها ازدادت والتفت حولي وملأت الفضاء بمواء حاد يصم الآذان، صرت غير قادر على تحديد ايهما اكثر خطورة، وجدت ان لا حجارة حولي، استعددت للمواجهة ولكنني وجدت نفسي مرة واحدة لا استطيع رؤية النور وهي تتكوم فوقي، اوغلت مخالبها في جسدي وجرّتني من اطرافي كما المكبّل، كنت منبطحاً على الأرض لا حول لي ولا قوة، صحت بصوت مبحوح، شعرت بالاختناق، صرخت، ارتج جسدي فاذا بي أصحو خائفاً، مرتجفاً.

في السنوات الأخيرة وبعد التضييقات على إدخال أطفال غير الكويتيين في المدارس، وكان لمعظم الفلسطينيين حتى اواخر السبعينات مدارسهم الخاصة والتابعة للمنظمة، تحولت بعض احياء الفلسطينيين الفقيرة الى احياء للعصابات والجهل والمرض، اطفال كبار بلا عمل وبلا مدارس، يجوبون الأزقة والطرقات ليل نهار ويحملون السكاكين على جنوبهم. وتحولت مجموعات من الكويتين إلى "بنك"، مقلدين في ذلك الغرب لكن على الطريقة الكويتية، يلبسون عقالاً بدون حطة وهم يقودون سياراتهم العجيبة والفارهة ويجوبون الشوارع متحدين ومعتدين على كل الذين يجدونهم من الجنسيات الأخرى خاصة الفلسطينيين، فالفلسطينون لا يتقبلون الذل والخنوع، في تلك السنوات حدثت مشكلة الواجهة البحرية، اعتدى "البنك" الكويتيون على شباب وفتيات فلسطينيين، عرف بالخبر سكان "الفروانية" فخرج اطفاله الكبار وجرت المعركة، وطار الاطفال في الماء من صخرة إلى صخرة ليلقنوا "البنك" درساً لم ينسوه، وقتل عدد منهم رغم أن الجرائد لم تكتب عن ذلك بأمر من وزارة الداخلية.

مشكلة الكويتي وغير الكويتي تجدها في معظم الاماكن، في الشارع وفي العمل وفي الاعلام، واذا ما نشب عراك بين كويتي بدشداشة وغير كويتي "بمقص" (بنطال) تلتئم جموع الدشاديش وينهالون على "المقصات" ضرباً، في العمل يتضح ذلك من خلال السلم الوظيفي والتهديد المستتر والمعلن بالفصل، أما في الاعلام فرموز ذلك كُثر يقف على رأسهم "الشيخ" علي الجسار، فهذا الشيخ يدعو الكويتيين إلى

توزيع صدقاتهم واموال زكاتهم على "ذوي القربى"، وعندما وزعت زيادات في الرواتب في الاعوام الأخيرة كان أول الداعين الى لا ضرورة إعطاء هذه العلاوات للاغراب، فالاغراب ليسوا اكثر من خدم، والخدم لا تنطبق عليهم العلاوات.

* * * *

لم اعتقد أن الحرب ستقوم فعلاً، فالخلاف على موعد اللقاء بين وزراء الخارجية : بيكر وطارق عزيز مع الرئيسين صدام حسين وجورج بوش كنت أراه ليس سبباً كافياً لاشتعال الحرب، كما أن فشل المحادثات كان ينتظره مبادرة فرنسية تطالب بحل مشاكل المنطقة مجتمعة، إلا أن بوش دفع بديكوبار لزيارة بغداد ودفن المبادرة الفرنسية، كنت اعتقد ان الحرب لن تاتي ولذلك لم اشتر اغراضاً للتخزين وبلاستيك واشرطة لاصقة إلا في اليوم الأخير، فالحس الشعبي وفي الشارع كان يفوقني فهماً، كلهم اشتروا وضاعت كلماتي هباء، وبشعور من الخجل والارتداد إلى الذات اشتريت ما لزم، قلت يومها : "إذ جن قومك فلا ينفعك عقلك"، لكن يبدو أنني أنا الذي كنت مجنوناً بافكاري، أعلن فرض منع التجول يوم الخامس عشر من كانون الثاني، لكنه لم يكن حازماً، كان الجميع يخرجون ويتجولون إذا غابت الدورية، وكان الشباب يضربونها بالحجارة كلما أتت، حملت وعاء وذهبت إلى شارع القدس لاشتري كازاً، كان هناك طابور طويل وكأن الحرب وشيكة، استمعت إلى خطاب الملك حسين بما يشبه خطبة الوداع، كل كلمة كانت تقول بأن الحرب قادمة، مر الليل والنهار وجاء الليل ثانية ونحن في حالة ترقب للمصير المجهول الذي ينتظرنا خاصة نحن الذين نعيش في المخيمات، فاشاعات القتل الجماعي والابعاد انتقاماً انتشرت، صحوت على صوت يقول بأن الحرب اشتعلت، ركضنا نحو الغرفة المعدة لهذه الغرض، سمعت أصواتاً في الخارج، تجمع الناس في الأزقة، قالوا بأن الاخبار سيئة، رجعت إلى البيت

وفتحت الراديو والتلفاز معاً، كان بوش يلقي خطاباً قال فيه بأن رفض صدام للانسحاب رغم كل المحاولات اجبرت عالمه الحر على صد العدوان الذي وقع على الكويت وذلك لاحقاق الحق وإقامة العدل، قال بان الطيران قام بقصف كل المواقع الاسراتيجية والعسكرية وأن هذه الحرب لن تكون طويلة وليس هناك شبه بينها وبين حرب فيتنام، وأخيراً طالب الامريكين للصلاة من أجل أولادهم ليعودوا بسلام.

فوجئت ليلتها وفي النهار بالأخبار الواردة من الإذاعة والتفاز الاسرائيلي وتقارير وكالة "سي. ان. ان" الامريكية، اكثر من الفين من الطلعات الجوية قامت بها القوات الحليفة مستهدفة المنشآت العسكرية والاستراتيجية والحرس الجمهوري والمطارات وسلاح الجو، دمروا كل شيء، أوحت لي الأخبار بأنه لم يبق شيء سوى أن يرفع العراقيون الرايات البيضاء، كدت أجن من الأخبار المتتالية ومن الفرح الذي بدى على ابواق الغزاة، المذيعون الاسرائيليون يرقصون طرباً ويكادون يقفزون من شاشة التلفاز، الوزراء الاسرائيليون بليكودهم ومعراخهم وحمائم سلامهم يهنىء بعضهم بعضاً، يتعانقون، يا للخسارة! كل شيء انتهى، لم أنم تلك الليلة، لكن الاصوات التي سمعتها من الجيران كانت تبدو عليها الفرحة، لماذا؟ لا أعرف، قررت أن لا أخرج، لولا إبن الجيران، محمد، شاب لم يبلغ الخامسة عشر بعد، طويل القامة، أسمر الوجه، مجعد الشعر، تكسو ملامحه ابتسامة تحمل معها نوعاً من الثقة، وكغيره من أقرانه يلبس حذاء رياضيا وبنطال "كابوي"، طرق الباب وناداني، قال : مبروك.

- لماذا؟! أبسبب تدمير منشآت العراق؟!

- من قال أنها دمرت إنها اخبار العدو، هل تصدقها! لقد بدأت الحرب يا جارنا مروان، إننا نحارب الامبريالية، لقد جاءت عندنا وها نحن نواجهها، إننا نعيد تحرير أرضنا من المستعمرين، اليس هذا كافياً لأن نفرح! الحرب لا زالت في بدايتها، أنت تعرف العراقيين أكثر مني، هل مثل هؤلاء يستسلمون! لم تجر المعركة البرية بعد، البيانات العراقية قالت بأن طائرات واسرى سقطوا في الارضي

العراقية، لقد بدأت الحرب.

حاولت شحن نفسي بعواطف أهل المخيم، لم يكن ذلك سهلاً، المشكلة هي أنني اضع حساباً لكل شيء، لم استطع الفرح مثلهم، محمد هذا يختلف عني، هو الذي يصعد على السطوح ويلقي الحجارة على الجيش مع آخرين وينتقل من سطح الى آخر، هو الذي آراه في كل زاوية في رام الله، يبيع الترمس أحياناً، يبيع الجرائد أحياناً أخرى، يبيع الخضار، يبيع كل شيء وهو ينادي : ترمس يا ترمس قبل ما عقلك يهلص، جريدة جريدة، الحرب حصيدة. يا خيار بلدنا، فيه سعدنا.. الخ، محمد لا يخاف الموت، محمد يحمل السيجارة ويدخنها أمام والديه، محمد يعرف اكثر مني ومتفائل بينما أنا لست كذلك.

دعاني في النهار للعب الورق، قلت : وهل هذا وقته؟

- نعم، كل الاوقات تصلح لكل شيء، حتى المقاتلون يلعبون الورق، لعب الورق ليس فقط تسلية، إنه محاولة للتركيز وعزل العوامل الخارجية، إنه محاولة لإعادة ترتيب ما تمسكه بيدك على الأقل.

ذهبت عنده، لعبنا الورق وشربنا الشاي والقهوة، تغلب علي حتى في لعب الورق، وقبل أن أذهب، قال : إذا احتجت لأي من الاغراض استطيع إحضارها.

- لكن... هناك منع تجول!

- هذا لا يهم، أي شي تريده أحضره.

عُدت إلى البيت، تحدثت مع زوجتي لأهديء روعها مثلما عمل محمد على تهدئتي، قالت : ولكن ماذا سيحدث الآن مع عبد القادر؟

- لا أعرف، هو الذي قرر ان يظل هناك.

- إنه لا يحمل هوية وليس من السهولة عليه ان يجد عملاً في الاردن، سنوات خدمته لا تفيده، اولاده وبناته أصحبوا عالة عليه.

- لا استطيع عمل اي شيء لأجله، هو اكبر مني ويستطيع ان يخطط لمستقبله.

حين ذهبت إلى الكويت رأيتهم يبدلون مقاعد غرفة الجلوس، صرت أبكي غضباً، لكن بعد ان تعرفت على الناس هناك وجدتهم يتكيفون مع

طبيعة الحياة في الكويت، هو لم يختر تماماً هذه الحياة، هجر الوطن قبل العام ٦٧ وبذلك سرقت منه مواطنته، هاجر من اجلنا ومن أجل والدي، وها نحن قد فقدناهما وهو قد فقد الوطن أيضاً، إذا حلت قضيتنا فان حق العودة يسمح له بأن يعيش في وطنه، تصوري أن راتبه الآن لا يكفيه.

- ليس المهم الآن راتبه، المهم هو حياته، هل سيستطيع الخروج عبر العراق او السعودية او ايران؟!

- لقد اصبحت حياته مرتبطة براتبه، إذا لم يتلق راتباً فمن أين له حتى الخروج من هناك؟! لقد انكشف الزيف الذي كنا نعيشه، لقد ضاع الحلم، بل سرق، أحلامه كلها ضاعت، الكويت لم تعد كويتاً، والدرجة التي حصل عليها هناك لا تفيده، لم يكن هناك احد منا يخطط للمستقبل، المستقبل لم نكن نراه، من قال باننا لن نشتري التفاح والبرتقال والخضار بالصناديق ! من قال بأننا سننام يوماً على فراش ارضي وتأكلنا رطوبة المخيم! من قال بأننا سنحس بالخوف الذي نعيشه الآن! لماذا لا نتحول مثل الجيران! لماذا لا نعيش الحياة كما يعيشها محمد!؟

مرت الساعات ثقيلة بينما كانت الإذاعة الاردنية تقول شيئاً مغايراً لما تقوله الإذاعة الاسرائيلية، أصبحت أشك بكل ما تقوله كلتا الاذاعتين وأحاول بعدها أن اصوغ الخبر بشكل ثالث يقع بينهما، لكن الإذاعة الاسرائيلية طلبت منا جميعاً أن نتابعها، إنها تحاصرني، تضعني في سجن رهيب، لماذا لا أصدقها؟ لماذا اصدقها؟! سواء صدقتها أم كذبتها فأنا مجبر على سماعها.

قبل ان أتوجه للفراش، سألتني زوجتي : وكيف نعرف أخبار نجوى! من المفترض ان تلد في هذه الأيام.

- وأنت ؟!

- بعد اسبوعين.

- نجوى تعرف أن تكيف نفسها اكثر منا، فهي ابنة البلد.

- وهل نستطيع ان نساعدها في هذه الظروف؟

- هذا واجبنا إن استطعنا، لكنها واثقة من نفسها ولربما نحن الذين نحتاج إلى مساعدتها.

وضعت المذياع بالقرب مني، تركته مفتوحاً بينما كنت اغفو قليلاً وأصحو، كانت زوجتي كذلك، خطر ببالي أن نتبادل النوم، لكني وجدته صعب التحقيق، فكلانا متعب، غفوت، صحوت، فاذا بصوت صفارة الانذار تبلغنا بغارة صاروخية على البلاد، هكذا قالها المذيع، نهضت مسرعاً، أغلقت الباب، لصقت أطرافه وجلست استمع للأخبار بينما أصوات أبناء المخيم تعلو في الخارج، صفافير، أصوات فرح، تكبير، رأيت زوجتي تحس بالتعب، قالت : إلى المشفى.

- لكن هناك غارة صاروخية.

- يبدو أنني سألد.

- هل أنت خائفة؟

- نعم، خذني إلى المشفى.

أزلت الاشرطة الاصقة، لبست ثيابي، جهزت حقيبة لما يلزمها من ثياب وقبل أن نخرج أعلن عن صفارة الأمان.

رغم منع التجول كان الناس يتجولون، كانت الشوارع مليئة بالفرح والحب والقرب والبساطة، كانوا يتحدثون عن الصواريخ ويتطلعون إلى السماء كما لو أنها فتحت عليهم في ليلة قدر، كل منهم يحاول وصف ما شاهده موكداً أو معارضاً لرأي الآخرين، كل منهم يود ان يكون شريكاً في الحدث كما لو كان هو الذي أرسل صاروخاً، تشكلوا مجموعات مجموعات، وينتقل الافراد من مجموعة إلى أخرى محاولين سماع شيء جديد أو إضافة شيء جديد، الجميع كانوا في انتظار الجديد وها هم يجدونه، بعثت فيهم العروبة مرة واحدة، كانوا اكثر قرباً من اي وقت رايتهم فيه، بعث فيهم المارد العربي الذي نام طويلاً، رأوه ينهض، يزيل الصخر الذي وضع فوق جسده وينهض. كان يهز جسده ويلقي بالغبار جانباً، رأوه يصحو من غفوته، يفرك عيونه، يتطلع في من حوله فيجد القذارة، يفرك عينيه ثانية ويتفرس في الوجوه واحداً واحداً، تزداد الضربات على جسده من كل جهة وعلى كل جزء من جسده،

كانت الضربات مؤلمة، لكنه كان كالبطل المصارع الذي انتشى بهتافات الجماهير من حوله، الجميع يهتف باسمه وبعظمته وبقوته وبضرورة تحقيق النصر على عدوه، كانت الأصوات عالية تخترق الآذان وتطير بالبطل توهمه بأنه البطل الوحيد في العالم، الضربات الموجعة تنهال على وجهه وعينيه وصدره ويديه ورجليه، لكنه كان صامداً وهو ينهض رويداً رويداً، لم تعد الضربات تهمه، صار اكثر احتمالاً، ضم قبضته وألقاها في وجه غريمه، كاد غريمه يترنح، انتظمت الهتافات وعلت، علت، وصلت أمواجها السماء فعانقتها، تحول الغريم إلى وحش كاسر وكان البطل ينهض، ينهض والهتافات تعلو، لكنهم كانوا متخوفين من أن ينهار، فبعد احاديثهم المتفائلة يختمونها ب "الله يستر"، كانوا متخوفين من أن يسقط المارد وينام ثانية، فلقد انتظروه طويلاً ويخشون إن نام أن لا ينهض مرة أخرى، كانوا متخوفين إن سقط، تسقط هتافاتهم وأحلامهم ومستقبلهم فلا يعودون يرون الأمل مرة أخرى، ومن أين يأتي الأمل إن سقط هذا الذي ينهض!!

* * * *

مضت دقائق فاذا بالطبيب يخرج ليخبرني بأننا رزقنا ولداً، بكيت كثيراً، جاءتني صورة ميسون مرة واحدة، شريط سريع تمثل أمامي : حين ولدت، وحين لعبت، وحين تكلمت، وحين مرضت، ورحلة الهروب حتى ماتت، لم نرزق ببنت بدلاً منها، كنت سأسميها ميسون، اندفعت مرة واحده نحو زوجتي، عانقتها، قبلتها، ها نحن نجد إنساناً جديداً سيعيش معنا إذا لم يسرقه السارقون، الإنسان يفرح حين يُهدي قميصاً أو بنطالاً فما بالك حين تكون الهدية إنساناً من لحم ودم، يتحرك ويبكي ويغني ويكبر.

وأنا أتجول في صباح ذلك اليوم، كنت فرحاً وأحس برغبة القفز أو الرقص، صرت أمشي وألوح بيديّ الى الأمام والى الخلف، وضعت احداها على جسدي ولوحت بالأخرى، وجدت أنني أضع يدي على بطني وكمن

اكتشف جسده من جديد، لم أجد "كرشي" الذي تعودت على حمله وأنا في الكويت، لقد خفّ كثيراً بحيث استطيع اعتبار نفسي من غير "المتكرشين" على حد قولهم، راودتني رغبة قوية بالقفز والرقص، قفزت مرة، لكن حذري من أن يراني احدهم جعلني اطوف بعينيّ على امتداد الممرات، فوجئت بوجود نجوى، كانت تبدو كعروس خرجت لتوها من الاستحمام الأول بعد ليلة زفافها، وجهها الأبيض تفوح منه النضارة والحيوية، وعيناها تلمعان ببريق فيه مودة وتقرب أما شعرها فكان من الصعب معرفة إن كان مرتباً أم هكذا خلق، كانت تحمل طفلاً وتود الخروج، نادتني واسرعت نحوها، ودون أن أسألها عرفت أنهاولدت، كشفت عن وجه الطفل، رأيته يشبه تماماً أخي الشهيد، انفه وفمه وشكل ذقنه وعيونه، صرخت فرحاً : إنه خالد.

- نعم، لقد سميته خالداً، سيصبح اسمه "خالد خالد" وبذلك يحمل اسم والده مرتين وسأظل أحس بوجوده. قالت ذلك ولم تبك، كانت واثقة، سألتها : لكن كيف أتيت وأنت تسكنين بعيداً في البيرة.

- هاتفت الهلال الأحمر وقد جاءت سيارتهم وأخذتني وهي ستعيدني، لا بد أنها في انتظاري، لكني سأرى زوجتك وابنكما الجديد.

انطلقت نحو الغرفة، تفقدته، تجادلنا حول الاسم الذي يليق به، قالت نجوى بأن الأهل يسمون ابناءهم إما اعتداداً بالماضي وتمسكاً به وإما لمخاطبة المرحلة التي نعيشها وإما لمناجاة المستقبل.

- إذا نسميه سكود. قلت.

- لا، فهذا الاسم مستورد، لكن الصواريخ التي القيت هذا اليوم اسمها الحسين وهذا لا ينسابنا لما عانيناه من هذا الاسم.

- نسميه إذن العباس.

- لا ، لا أجده مناسباً، فنحن لا ندري بعد إن كانت هذه الصواريخ مرحلة جديدة نحو التقدم او التراجع.

- نسميه صاروخاً فهو قد ولد سريعاً.

- لا، لقد خرج خوفاً وليس في إطار معركة او حرب.

- ما ذنبه إذا كانت أمه هي السبب في ولادته سريعاً، فربما يكون هذا

الولد شجاعاً ومقاتلاً.

- ما رأيكم لو سميناه فرحاً؟

- ولكن هذا الاسم يطلق على البنات اكثر من الأولاد.

- إنه يصلح للجنسين ولم يعد هناك فرق بين الاثنين خاصة بعد أن يكبر، فالأسم في النهاية هو اصطلاح اجتماعي، دعنا نساهم في ذلك.

- لكنك سميت ابنك خالداً.

- خالد يخاطب الماضي والحاضر والمستقبل والأرض، والخلود هو للشعب جمعيه ذكوراً وإناثاً وهكذا في هذه المرحلة طلع للعالم الفرح الخالد.

- رغم جميع المآسي!

- رغم كل شيء.

فرحنا لهذا الأسم، وفرحت معه نجوى، عدنا إلى البيت بحلة جديدة وبفرح جديد، كان الفرح يكسونا من كل الجهات في المخيم، فتحت التلفاز فلم اشاهد سوى أربعة مواقع من أصل تسع هجمات، قالوا بأن الهجوم كان على مواقع سكنية ولم يفقد احد حياته من جراء الإصابات، توفي البعض بسبب صدمة قلبية، كانت بعض النساء تبكي، جاء محمد، دعوته لشرب كأس من الشاي، قال : مبروك فرح، ألست فرحاً!

- بلى

- هل سمعت صوت الانفجارات؟

- سمعت بعضها.

- وماذا فعلت؟

- كنت في الغرفة، اختبأنا في الداخل.

- أما أنا فقد رأيت الصواريخ.

- كيف ؟

- حين سمعت الإنذار، اعتليت السطوح ورأيتها، هتفنا لها : الله اكبر، وانطلقت الصافرات من كل جانب.

- ألا تخاف أن تسقط علينا؟! ولربما كانت كيميائية!

- لن تسقط علينا، وحتى لو سقطت لن يفيدنا البقاء في غرف مغلقة بالبلاستيك، وإذا كانت كيميائية وسقطت في منطقتنا فعلينا الاسلام.

- ألا يخيفك هذا ؟

- ليس كثيراً، إنني أخاف حين أدخل الغرفة وأغلقها على نفسي، ها هي التجربة الاولى نمر بها، يبدو أن صواريخ صدام دقيقة وليست كما إدعى الاسرائيليون والامريكيون، هل لك ان تخبرني اين سقطت باقي الصواريخ التي لم يعلنوا عنها؟!

- كنت سأسألك.

- بالتأكيد لم تسقط في البحر ولا في مناطق عارية، لقد سقطت على مواقع عسكرية واستراتيجية.

- وكيف لك أن تعرف؟!

- لو سقط صاروخ واحد على موقع خالٍ لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها ليثبتوا عدم دقتها، لكن هل رأيت صور النساء الاسرائيليات وهي يبكين؟

- نعم رأيتهن.

- ألم تشعر بالفرح؟!

- لم افكر فيه.

- لقد فرحت أنا يا مروان، لم يكن ذلك تشفياً، بلا أردت أن يفكروا قليلاً حين يهدم بيت أحدهم، كم عدد بيوت الفلسطينين التي هدمت!! وكم عدد العائلات التي شردت!! فهؤلاء لن يحسوا بكل الأعمال التي يقومون بها إلا إذا مورست ضدهم، وهكذا فعلت الصواريخ بهم، لم يعتقد أحد منا أن احداً يستيطع ان يخترق حاجز "حدودهم"، تبجحوا بذلك امام العالم، وجاءت هذه الصواريخ لتفض بكارة الوطن، وكما كنا نحن بانتفاضتنا قد أقمنا حفلة الخطوبة والتحضير للعرس، فلا بد أن الوطن سيحمل وسيلد.

فرحت لما قاله محمد، لكن يبدو أنه كان مشغولاً، شباب المخيم جاءوا في طلبه، شرب الشاي وخرج، كنت أود أن استمع لحديثه، وددت

لو أسأله عن أشياء أخرى رغم انني اشتقت لرؤية فرح وسماع بكائه وأنا بقربه.

المخيم لا يسمح للطفل الجديد بالهدوء، أبناء المخيم يعتادون ذلك منذ الصغر، إذا كان هناك هدوء فأعرف بأن المخيم تحول إلى شيء آخر، الهدوء تجده في الأماكن الأخرى، استمعت للإذاعة الاسرائيلية علني اسمع انذاراً بوجود هجمات صاروخية، كدت اجن من الأخبار التي أسمعها، أحاول سماع إذاعة الاردن أو تلفازها، او مونت كارلو، او لندن لكني اضطر لإن يكون لي اذنان وجهازان عصبيان، فكلما جاء خبر بأن القوات العراقية لم تفقد فاعليتها يبرز لي صوت المذيع الاسرائيلي يحمل تصريحاً لأحد الوزراء، كلما سمعت البيانات العراقية النارية تقصفني طائرات الحلفاء، كلما سقطت طائرة حليفة تأتيني آلاف الطلعات الجوية ومئات الأطنان من المتفجرات، وبقصف كل موقع في بغداد او قاعدة عسكرية.

قررت حينها أن اغلق المذياع واستمع لالحان صوت فرح، لكن صوت الأخبار يأتيني من البيوت المجاورة.

سمعت صوت انذار جديد، اغلقت الغرفة، لصقت أطراف بابها، لحظات فاذا بي أسمع صوت الانفجارات حيث تندمج بصيحات الله اكبر وبصافرات الشباب وأهل الحي، وصوت المذيع كما في المرة الأولى يطالبنا بلبس الكمامات التي لا نملكها، كنت قد صنعت كمامات من الصودا المذاب في الماء، وضعتها على أنفي، فعلت زوجتي كذلك، التقت نظراتنا مرة واحدة، تطلعنا نحو فرح، وجدناه بدون كمامة، القيناها جانباً وقلنا : "حط راسك بين هالروس وقول يا قطاع الروس".

مرت الأيام حيث صرنا أقل حرصاً على اغلاق الغرفة، خجلت من نفسي والكل يتحدث عن الصواريخ التي شاهدوها، اخبرتهم بانني رأيتها انا الآخر في الكويت قبل ان تطلق، قالوا : ليس مهماً أن ترى لعبة، المهم أن تلعب بها.

- وهل هناك لعب بالصواريخ؟

- رؤيتها وهي تتحرك جزء من اللعب.

قررت أن أخرج، مر يومان دون اطلاق صواريخ، سمعت صافرة الانذار بعدها، صعدت إلى السطح، كانت الاسطح تلوح منها الايادي في الهواء، سمعت الأصوات تأتي من كل جانب وهي تهتف : وصل.

تطلعت إلى السماء، بحثت عنه، فاذا به قد تجاوزنا، يهدر بصوته، وشعلة حمراء تتبعه، واصوات الله اكبر تدفعه بعيداً الى الغرب، لم اتمالك نفسي حين صحت بأعلى صوتي : وصل الكيماوي وصل. سمعت أصواتاً اخرى ترددها، وسمعت الاطفال يرددونها حين أشرقت الشمس، وفي المرات التالية كانت اصوات كثيرة تهتف بفرح : وصل الكيماوي وصل.

الفصل الثاني

كنت مستلقية على السرير، أتابع بنظراتي حركات خالد الصغير، أتأمله بعد يوم من ولادته، فجأة سمعت صوت الممرضات وهن يتراكضن الى الداخل، نهضت، استوقفت احداهن، فقالت: كيماوي.

لم أتحرك، تركتها تلحق زميلاتها، ملأ الضجيج المشفى جميعه، حاول بعض المرضى اللحاق بالممرضين، لكنهم رُدوا إلى غرفهم، عُدت إلى غرفة خالد، حملته وتوجهت نحو الغرفة ذات النوافذ الواسعة والمطلة على مخيم قدورة، رأيت الشباب وأهاليهم يتجمعون فوق الأسطح بينما رأيت غُرفاً تنطفىء أنوارها، الصافرات تنطلق من كل جانب وهتافات "الله اكبر" و"يا صدام يا حبيب، اضرب اضرب تل أبيب" تعلو، يقطعها صوت سيارة الإطفاء تصيح معلنة عن هجوم صاروخي.

علت الاصوات مرة واحدة وهي تعلن عن وصولها، تطلعت إلى السماء فاذا بها تتجه إلى الغرب وأصوات تعلو : عليهم، عليهم. سمعت بعدها صوت أربعة انفجارات، علت الاصوات ثم هدأت رويداً رويداً، أعيد فتح بعض غرف الممرضين وخرج بعضهم يلبسون كمامات على وجوههم وكفوفاً على ايديهم، لم اتمالك نفسي، صرت اضحك بينما راح خالد الصغير يبكي، سألت الممرضة : لماذا تضحكين؟

- لإن الصغير يبكي.

- ولماذا يبكي؟

- ربما لإنه لا يملك كمامة مثلك.

- وهل أخلعها وأهديك إياها؟!

- لا، الذنب ليس ذنبك، إنها السلطات التي أعلنت عن استعدادها لتوزيع

الكمامات على أهالي الضفة بعد رفع قضية في محكمة العدل العليا، لقد ماطلوا في اقناع المحكمة وفي إتخاذ القرار لأسباب واهية، وبعد القرار ابتدأت الحرب ولم يوزعوا الاقنعة بعد، بوش قال بأن الحرب ستكون أقصر من أن يتصورها أحد ولم توزع الاقنعة.

- اتركينا من السياسة، فهذه لها رجالها.

أصبت بالامتعاض لما قالته، حفرت هذه العبارة عميقاً في داخلي، فرغم أنني جئت من عائلة متوسطة لأبوين موظفين ومتعلمين إلا أن المجتمع هو الذي يمنعني من العيش بصورة طبيعية، ربما كان انهماك والدي في العمل لبناء بيتهم هو السبب في أنني لم أشعر بانهما يقيدان حريتي، وربما لانهما خططا لذلك، لقد اتيحت لي الفرصة لأقرأ الكثير واشترك في المكتبات العامة، لقد كنت موضع انتقاد الجيران والاقارب، كان يصر الاقارب ان لا أخرج عن تقاليدهم، وانتقدني الجيران بسبب خروجي على أعرافهم، كنت أخرج إلى الشارع وألعب، لعبت مع أطفال حيّنا "السبع حجار"، وقدت دراجتي الهوائية في الشارع، لذلك اطلقوا علي اسم "حسن صبي" تعبيراً عن أنني اتصرف مثل الأولاد، تضايقت في البداية لهذه التسمية، لكني تعايشت معها، قررت أن أعيش هكذا دون إلتفات لما يقولونه، ونادراً ما كان والداي يحاولان التوفيق بيني وبين الاقارب، فنشأت هكذا، اعتقدت بأنني استطيع فعل ما يفعله الرجال، وكنت اعمل على تحريض زميلاتي ليكن مثلي، كنت مميزة في المدرسة، وكنت مسؤولة لجنة الطالبات في الكلية، اشتركت في النشاطات العامة للمرأة، واستطعت بمساعدة زميلات كثيرات أن نرفع صوتنا، وها هي الممرضة تعتقد أن السياسة تكون للرجال فقط، شعرت بالغضب منها وبالشفقة عليها في آن معاً، صمت قليلاً ثم قلت مؤكدة: ونساؤها أيضاً.

تركتها هي وقناعها المخيف، عُدت إلى الغرفة حيث رضعت خالد الصغير واستمعت لأخبار المذياع حيث أعلن أن الصواريخ حملت رؤوساً تقليدية وأصابت احياءً سكنية، هناك فقط إصابات وهم يتلقون الآن العلاج في المشافي.

* * * *

مثل كثيرين غيري، لم أصدق أن الحرب ستقع بهذه السرعة، فالتحليلات الغربية قالت بأن القوات الحليفة لن تكون على استعداد للحرب قبل منتصف شباط، "ولطيف نصيف جاسم"، وزير الإعلام العراقي، أعلن في لقائه الاخير: إن علينا أن نشعر بالإرتياح، فها هو الخامس عشر من كانون الثاني يمر والحرب لم تقع. لكني كنت أومن أن الحرب ستقع فعلاً، فلا يعقل أن تأتي هذه القوات فقط للسيطرة على آبار النفط في السعودية والدويلات المجاورة، بل تريد أيضاً تحطيم قدرات العراق العسكرية لقطع الطريق عليه من أي امتداد له في المستقبل، وتريد تحطيم قدراته الاقتصادية لتحديد توجه هذا البلد بعد الحرب، كنت أؤمن ورداً على اعتقاد الكثيرين غيري بأن الحرب لن تقع، بأن القرار لا يحدده فقط بوش واعوانه الامريكيون، بل تحدده مصلحة امريكا بصفتها قائدة العالم الامبريالي في السيطرة على مقدرات العالم وعدم السماح باعادة رسم الخارطة السياسية بما يصطدم مع مصالحها كما فعل العراق، ولذلك فان هذا هو السبب الأقوى للمخابرات الامريكية والمستشارين السياسيين لضرب العراق حتى لو ضُحي ببوش وبغيره من الزعماء أمام الجمهور الامريكي، ها هي الحرب قد بدأت سريعة وكاسحة وستنبىء الايام عن مدى قدرة العالم الثالث ومن ضمنه الاسلامي والعربي للدفاع عن نفسه.

أزحت مؤشر الموجات الإذاعية لالتقط غير السم الامريكي والاسرائيلي، التقطت إذاعة بغداد بالبيانات المتتالية والحماس الملتهب عبر الاغاني ومقاطع من خطابات الرئيس العراقي، لم أشحن بهذا الحماس فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، والحروب السابقة علمتني أن لا أصدق تماماً ما يرد عبر الإذاعات العربية، لقد فقدت الثقة بها والناس يقولون دائماً "كلام إذاعات" كما يقولون "كلام جرائد"، الثقة بيننا وبين الاعلام فقدت منذ زمن فكيف نستطيع إعادة

بنائها، إننا لسنا السبب بالتأكيد، الاعلام الغربي يعلن عن ما يخدم مصلحته في الاستغلال وسرقة مواردنا واعلامنا العربي يستغل احداثاً أخرى للمحافظة على سلطته، فأين نقع نحن من هذا وذاك، الحقيقة ليست هي الحقيقة، والعدل ليس هو العدل، والصحيح ليس هو الصحيح، والحق ليس هو الحق، كل شيء يحتاج لقوة تثبته وتنصره، لقد انتهت حواجز الاقطاعيات إلى غير رجعة، الاعلام يستغلك ويغير عقلك وانت في بيتك ودون أن تدري، "مونت كارلو" ليست اكثر من شركة تديرها عدة مؤسسات : مارلبورو، تي. دي. كي، فوجي، سيكو وغيرها، هذه الإذاعة تمطرنا بالاعلانات والاغاني الجميلة والأخبار المتناقضة من "باسم أبو سمية" "وعبد الله الشهري" و"باسم المعلم" و"حسن الكاشف"، وتصورلك أنها تعلم بكل شيء، تدس لك سماً مبهراً لئلا تعرف الحقيقة، إنني أعرف شيئاً واحداً فقط، انني اعرف ان الحرب لا زالت في بدايتها وأن العراق سيصمد مزيداً من الوقت، وليس له خيار آخر سوى الصمود.

لم أنم جيداً تلك الليلة، لم يكن ذلك خوفاً مثل بعض من شاهدت، ظللت استمع للمذياع وأحاول أن أرى الصورة من جديد خاصة بعد إرساله الصواريخ إلى تل أبيب، قال الخبراء الأجانب ان الخطا في المدى كبير جداً بحيث ستقصف الاردن او الضفة الغربية بدلاً من الأحياء اليهودية، وكما يبدو من الأخبار فان "الحسين" يعرف هدفه جيداً، هل يبدو في الأفق أن العالم الثالث يعرف مصيره في ضوء التطورات الجديدة! هل تنهض مصر بشعبها! هل ينهض العسكريون السوريون ويثورون على القيادة السياسية! هل تعرف سوريا بأن الضربة القادمة ستكون من نصيبها! هل تلتئم جراح ايران وتسجل موقفاً تاريخياً! أين الهند! باكستان! كيف سيكون موقف الصين بعد "بيروسترويكا" غورباتشوف! ماذا سيكون دور الاردن! اليمن! السودان!.

احضرت أطلس العالم، قلبت صفحاته واحدة إثر الأخرى، حاولت أن ارسم خارطة لعالم جديد، كان ذلك صعباً، لو كان بيدي أن أعيد صياغة العالم لجعلته شيئاً آخر مختلفاً تماماً، لجعلت شعوب العالم الثالث

تفيق على حالها لتقاوم سياسة النهب والسرقة للموارد والعقول وكل شيء، لو كانت الأمور بيدي لجعلت الشعوب العربية تحس بعروبتها وباسلامها، فحتى من ناحية تاريخية فان الدين الاسلامي هو الاكثر شمولاً والاكثر تقدما مقارنة بالديانات الاخرى والذي لا يمكن لأية ايدلوجية في هذه المنطقة أن تتجاوزه، لو كانت الأمور بيدي لعملت على نشر الديمقراطية لتكشف عن إبداعات الشعب في مقدرتها على إيجاد نموذج خاص بها دون الحاجة إلى استيراد نماذج جاهزة عانت الكثير من المشاكل حتى في بلدانها، الامور ليست بيدي والعالم لا ينتظرني، فهناك الوحش الامريكي الذي يود ويعمل على إزالة كل ما هو إنساني من أجل أن يظل هو السارق الأول والشرعي حسب القوانين الدولية.

بالنسبة لي فان اهم ما فعله النظام العراقي هو إيقاظ هذه المفاهيم الجديدة للعالم الثالث والعالم العربي بشكل خاص بعد أن عملنا على اسكاتها عبر السنوات الاخيرة من أجل ان نصبح اكثر عقلانية وتفهماً للعالم الجديد الذي عمل على بنائه العملاقان، وها هو العملاق الأحمر يتهاوى ويتحول إلى أداة في يد العملاق الوحش، إن زعماءه يتسابقون من أجل مزيد من الانفتاح وفتح كل القنوات أمام أذرع الاخطبوط.

كيف كان خالد سيرى الأمور لو لم يمت، لقد عمل بجدٍ من أجل إقامة علاقة جيدة مبنية على الثقة والمصارحة مع الاسرائيليين، لقد كان يقول حين أسأله عن الفائدة الحقيقة لاتصالاته: الانتفاضة بحجرها لا تحرر أرضاً محتلة شبراً شبراً، إنها فقط تعمل على وحدة الشعب في شعار سياسي نوصله للآخرين، الرسالة الوحيدة هي أننا نود العيش معاً، كل في دولة مستقلة، لا تظني أن لقاءاتنا تحقق الكثير مرة واحدة، فهي محاولة لبناء جسر من الثقة بيننا، رغم أنها تشبه حلقات التحقيق بنوعية الأسئلة التي توجه إلينا، هناك خوف كبير واسئلة كثيرة، تصوري بأنه رغم كوننا ضحية إقامة دولتهم فانهم يخافون منا، إنهم يخافون الماضي والحاضر والمستقبل، إنني أشعر

بعدائيتهم حيناً وبالشفقة عليهم حيناً آخر، لقد أصبح لنا اصدقاء يهود من حركات واحزاب مختلفة، إننا بحاجة الى العمل المتواصل حتى نصل إلى العقول اليهودية إن لم يصلوا إلينا قبلها، لم يرفضونا كشعب، ولكن كل الافكار التي يطرحها شامير وزمرته يطرحونها أيضاً، عقولهم مسروقة من حكوماتهم مثلما حقوقنا مسروقة منهم، إنهم يخافون من أي انحياز لحقوقنا من قبل أية دولة في العالم، إنهم حساسون اكثر مما يجب، إن اكبر متطرف عندهم نستطيع الإطاحة به بالمنطق والجدال، يأتون مثل الثور الهائج، نمتص غضبهم ويتحولون في نهاية النقاش إلى حمل وديع يشدون على أيدينا ويعطوننا عناوينهم حتى نظل على صلة بهم، لكن إذا التقينا بهم في مرات قادمة نجدهم قد تغيروا، نعيد الكرة من جديد، هذا هو عدونا، علينا فهمه، الحجر يا نجوى لا يحرر أرضاً شبراً شبراً، إنه يحرر العقول، ينقصنا الاداة في التحرير، ماذا نفعل بهذا العالم الخاطيء؟! علينا فقط العمل.

تبخرت كل الانجازات التي حققها خالد وصحبه بين اليهود الاسرائيليين، تصور يا خالد بأنه حتى الكتاب الاسرائيليون يطالبون كتاب العالم ومثقفيه بالوقوف إلى جانب الحرب، لأول مرة أسمع عن كتّاب "مبدعين" يدعون إلى الحرب، لقد تبخرت معظم الانجازات التي حققتها المنظمة خارج الوطن العربي وحتى داخله، كم اعتقدنا بان استمرار الانتفاضة سيعيد رسم خارطة الوطن العربي؟! كم اعتقدنا بأن الشعوب العربية ستسقط زعاماتها وقامعيها؟! لقد حققت بعض الانجازات لكن الوضع لم يتغير، اعتقدنا أيضاً بأن الحرب الامريكية ضد العراق ستوقظ الشعوب العربية لكنها لم تفعل سوى القليل حتى الآن، مظاهرات في الاردن وضمن إطار الحكومة الاردنية، مظاهرات في الجزائر، الملك الحسن ركب موجة مظاهرات أوائل شباط، مظاهرات في اليمن، أين المستقبل؟!

الاسرائيليون يهدودن ليل نهار عبر رئيس الدولة وحتى أصغر حزب اسرائيلي بعقاب كل من يحاول الإخلال بالنظام، استطاعوا اغتيال معظم زعماء المنظمة المخضرمين في الخارج، والقوا القبض على

العديد من زعامات الداخل، أين هي حركات السلام! شامير يقول بأن الحل السلمي سيتوفر فقط بعد القضاء على قوة العراق، المنظمة طرف غير مرغوب فيه ومستبعد، لم تبدأ الانهيارات مع بدء الحرب، بل بدأت الهجمة مع دخول القوات العراقية إلى الكويت، كل شيء يلصق بنا، نحن المسؤولون عنه أمام الاسرائيليين، كان خالد قد التقى بهم قبل استشهاده، قال لهم: انتم تعيشون في العالم الثالث بينما تفكرون وتتعاملون مع الغير كما يتعامل معه العالم الأول، وهذا هو الفرق الجوهري بيننا وبينكم، نحن لم نلق ببيضنا في سلة النظام العراقي كما تدّعون، نحن ضد احتلال الكويت، لكن القضية تجاوزت ذلك إلى تدمير العالم العربي والعالم الثالث وعدم السماح له بالتطور. ابدى الاسرائيليون إعجاباً بما قاله لكنه ضاع بعدها كما ضاعت كيفية استشهاده.

لقد كنت ابن مرحلتك يا خالد، لكنك لم تر المستقبل جيداً، لو عرفت ما هو الآتي لتصرفت بطريقة اخرى ولوفرت جهدك لاشياء اكثر إفادة، لكن ماذا أفعل بطيبتك الزائدة، هذه الطيبة هي التي جعلتني احبك منذ التقينا في مصنع الشعب للأدوية، كنت من الطالبات اللواتي زرن المصنع للتعرف على الأدوية وأدوات فحصها، كنا طالبات العمل المخبري في الكلية، استقبلنا صاحب المصنع "عبد الرحمن المعبي" ثم أرسل في طلبك لتقوم بجولة تعرفنا فيها على أقسام المصنع المختلفة، جئت بقامتك الطويلة وعينيك الجذابتين وشعر لحيتك وشاربك يغطي وجهك، كنت أنا رئيسة الوفد وبذلك اتيحت لنا الفرصة للتحدث طويلاً، كنت أسير بجانبك ونظراتك الخجولة تجذبني، سألتك : لماذا نسمي هذا المصنع بمصنع الشعب للأدوية؟ هي معنى ذلك أنكم تستطيعون معالجة الآم الشعب؟! لم تتمالك نفسك، رحت تضحك بشكل هستيري، درت بوجهك جانباً، نفرت دموعك ورحت تمسحها، كررت السؤال، فاقتربت مني وقلت : هكذا يعتقد المعبي. ورحت تضحك ثانية، وكلما التقينا في شوارع رام الله كنت لا تتمالك نفسك وأنت تضحك.

منذ ذلك الحين وبعد أن تزوجنا منذ ثماني سنوات ظللنا ننظر لكل الأسماء والصفات بروح نقدية مرحة، عملت انا بعد تخرجي في "مختبر الشفاء"، تساءلنا حينها عن سبب عدم الحاق " التجاري" بالاسم، رزقنا بعد أقل من سنة بولد، احترنا في تسميته، فكرنا في اسم يطلق العنان لعقله وتفكيره، فاذا سميناه عناناً فمعنى ذلك أن هناك أحداً يشده او يطلقه، وإذا سميناه حراً يواجه المجتمع واطفاله الذين ربما يحولونه إلى "كُراً"، أخيراً سميناه فضاءً، أردنا ان لا يوضع حداً لخياله إلا الجدران الصلبة القاتمة والمغلقة التجاويف والتي يجب خلعها او اختراقها، لقد كانت هذه الامور التي يفكر فيها خالد كثيراً، خالد كان يحب أشياءً ويكره أخرى، ويحكم على الإنسان من خلال طعامه وشرابه، كان خالد يعتقد ان اكل ما هب ودب يميت الشفافية في الإنسان، كان يتغزل بفتاة وبرجل لم يرهما مطلقاً، كان يقول : لو اعتمد البشر على النبات فقط لاستطعنا رؤية حبة التفاح حين يقرضونها وتنساب إلى معداتهم، لو كان الانسان يتنفس الهواء النقي فقط لاستطعنا رؤية رئتيه وهما تكبران وتصغران، لو كان يشرب ماءً صافياً وعصير البرتقال والليمون لاستطعنا رؤية أنهار وأودية الدماء تجري في عروقه، ولو حدث كل ذلك ما عرفنا الرياء والكذب والخداع والقتل، إنني أشعر بالقرب من هذا أو من ذاك بقدر احساسي أنني أرى الاجهزة الداخلية له، انني ارى في نفس الوقت الحيوانات بكل نقائها وصفائها رغم ان بعضها يأكل اللحوم وغير ذلك، إنها تعيش كما يجب أن تعيش، هي في النهاية حيوانات، أما الإنسان فشيء آخر.

كان خالد يحدثني دوماً عن أيام طفولته التي يعتز بها، ويعتبر أن ما يعيشه الناس الآن هو قتل للحياة الطبيعية، عاش خالد أيام طفولته في الجبال والوديان، يأخذ عنزاته إلى المراعي حاملاً كتبه في حقيبته، كان أبوه يأخذها في الصباح واذا ما عاد خالد من المدرسة يأخذها بعد الظهر، كان يجد متعة في ذلك، كانت بالنسبة له رحلة بعد ساعات من الانضباط والالتصاق على المقاعد وغرف الصفوف وعصى المعلم، كان يجلس على صخرة يقرأ دروسه ويُحلق باحلامه مع

نسمات الطبيعة، قال بأنه كان يصاب بارتعاشه منعشة وهو يراقب العنزات الصغيرة ترضع من أمهاتها، كان يحس بالفرح والصغيرات يركضن حول أمهاتهن ويقفزن من صخرة إلى صخرة، وكان ينفعل وهو يراهن يتدربن على القتال بقرونهن، كلما حدثني عن ذلك اشعرني بأنه يعيش حياة بكاملها، كان يتحدث عنها بمشاعر انسانية فياضة أعجب منها ولا أملك سوى ان اجعله يسترسل في ذلك، سألته مرة إن كان له زملاء في الجبل، قال : أنا لا استطيع نسيان صحبتهم، كنا نأخذ معنا شاياً نصنعه هناك، ما أمتع شرب شاي السهل ونحن نضع الميرمية فيه، وما أجمل أن نأكل من شجر الزعرور، وما أحلى شواء البصل ورائحته ونحن في الجبل، وما اشهى شرب الماء من "المكر" أيام الربيع، كانت لنا العاب مختلفة نمارسها، منها لعبة "القنطرة" : كنا نبني قنطرة ونتسابق على من يُطيح بها أولاً، نقف على بعد مسافة منها ونلقي بالحجارة نحوها حتى نسقطها، كنا نعيش حياة بكاملها يا نجوى، لم استطع لعب وممارسة اشياء أخرى، والرعاة لهم اسرارهم أيضاً، لم استطع تعلم النفخ في الشبابة ولم يكن صوتي جميل حتى اغني، تعرفت على ألعابهم ولم أمارسها كلها لاسباب عدة منها انني يجب ان أنهى دروسي، من الألعاب التي لم أحبها لعبة "الشواريخ" أو "الربض" حسب الأداة المستخدمة في اللعبة، كان الرعاة ينقسمون إلى فريقين، يضعون جاجزاً وهمياً بينهم، يخلعون أحذيتهم ويتراشقون بها، والفريق الذكي هو الذي يستطيع تجريد خصمه من "الشواريخ" ويشن بها هجوماً عليه، لم أحب تلك اللعبة، إذ كانت المسامير سبباً في جرح أحدهم، كما ان استعمال "الربض" الطيني يكون اكثر قسوة، شاركت مرة في لعبة "المدبرة"، كانت مهمتنا القضاء على خلية "الدبابير"، كنا ننقسم إلى مجموعتين، إحداها تكون مهمتها سد باب المدبرة بالطين، وإذا لم نجد ماءً لخلطه كنا نستخدم البول، تقف هذه الفرقة على باب المدبرة ويفتحون ثقباً يسمح للدبابير بالخروج، وكلما خرج واحد يتم قطع رأسه بسكين، أما الفرقة الثانية فتكون مهمتها منع الدبابير التي في الخارج من مهاجمة الفريق الأول، بل يجب قتلها، نمسك ب

"النتش" ونذوذ بها كلما رأينا واحداً، وفي تلك المرة هاجمتني أربعة منها مرة واحدة ولسعتني، كانت لسعة احداها عند عيني، تألمت كثيراً وبقيت أياماً في البيت حتى راح أثرها.

حدثني كثيراً عن هذه الحياة، استمتعت بها وحسدته على انني لم أعشها، فالبنت مثلي ليس لها في هذه الشؤون رغم انني كنت "حسن صبي"، كما أن البيئة المختلفة التي عشتها لم تتح لي الفرصة لأشاهد ذلك وأقف على قرب منه.

حين جاء فضاء إلى الدنيا، فرح خالد كثيراً، ليس لانه ذكر، فلم يكن ذلك يعني له الكثير رغم أنه جزء من العلاقات الاجتماعية واعرافها، ولد في اوائل كانون الثاني حيث كانت السماء ملبدة بالغيوم تحجب الشمس عن الوصول إلى الأرض، قال يومها : الغيوم ستزول وسيعم الفضاء أرجاء المعمورة. كان الصقيع يتسرب إلى الغرف الداخلية، قال : خير المطر سيلقي بهذا الصقيع جانباً، إنها الحياة في هذه البقعة من الأرض، تأتي الغيوم بخيرها، يلفها البرد، لكن الشمس لن تتركنا، تطلع علينا كل يوم خلف الضباب وخلف الصقيع، يجب أن نفرح فدورة الحياة مستمرة بمآسيها ومصاعبها، غداً ستذهب الغيوم ويأتي الربيع، ألا تجدين في ذلك حكمة من السماء! لماذا لا يأتي الربيع بعد الخريف او بعد الصيف! الشتاء هو نهاية فترة الحمل، ستلد الدنيا بعد ذلك ربيعاً، انني أحب الشتاء لانني أحب الحمل، الولادة ستتكرر، سيذهب الماضي وسنعيش المستقبل، انظري إلى الإنسان كم هو فطري في طبيعته، يفرح لكل مولود جديد، يحاول أن يعيشه ويبحث عن ولادة جديدة، حتى الربيع ينتظره كل عام والشتاء كذلك.

أحببت خالداً كثيراً، كنت أرى فيه الصفاء، لم أكن أود أن يكون فضاء مثله بالضبط، فالحياة ليست مخلوقة بمقاس خالد، هو يود أن يأكل الإنسان ويشرب ما يجعله شفافاً، لكن العالم ليس شفافاً كما يود أن يرى، كبر فضاء مع خالد ومعي، كنت فاعلة في الاجتماعات النسوية والعامة، كنت فاعلة ومؤثرة فيها منذ كنت طالبة في المدرسة، اصبحت رمزاً نسوياً كما يقولون، عُينت في اللجنة العامة لنساء فلسطين في

الأرض المحتلة، كانت فصائل الثورة تحاول اجتذابها بينما كنت فاعلة مع الأطر الأربعة في وضع البرامج النسوية والتي كنت أيضاً على خلاف معها، فهي أرادت ان تبعد المرأة عن قضاياها الخاصة وتخرطها في صفوف النضال الوطني العام، وهي أرادت أن تعد أرقاماً من النساء حولها دون أن تنجز قضية نسوية على أرض الواقع، منذ بداية الانتفاضة وهن يتظاهرن كما الرجال وكنت من ضمنهن، وفي الثامن من آذار عام ٨٨ تجمعت النساء في سوق رام الله القديم وانطلقت مظاهرات مبعثرة، صاحت احداهن : دعنا نستشهد، لم تستشهد واحدة منا مثل الرجال. التفت حولي فوجدت شباباً ورجالاً يضحكون كمن يتفرجون على أطفالهم وهم يلعبون، حقدت عليهم وعرفت أننا يجب أن نشعر هؤلاء بوجودنا ونناضل للتساوي بهم حتى لا ينظروا إلينا مثلما ينظرون إلى الأطفال، ماذا تفعل هؤلاء النساء بعد رجوعهن إلى البيت؟ سألت احداهن فقالت : ارجع لاطبخ واكنس واعتني بالاولاد.

- وماذا تغير عليك منذ شاركت في الانتفاضة؟ سألت.

- صرت اكثر فاعلية ونشاطاً. قالت هكذا وببساطة.

سُررت لفاعلية المرأة ونشاطها، لكنه ظل ضمن الحدود الاجتماعية التي رسمها الزوج ورسمته الأطراف الأربعة، الانتفاضة ستنتهي في النهاية لكن المرأة لن تنتهي قضيتها، هكذا كنت أومن وهكذا أقتنعت بأن المرأة في النهاية قضية وأن جهنم مبلطة بالنوايا الحسنة، ها أنا قد تزوجت خالداً، خالد يختلف عني. ينظر إلى كل الأمور ببساطة، هو أول من اقترح على القيادة الموحدة عبر احد الملتزمين تنظيمياً ان يُوزع بيان موجه إلى الجنود، ظل اياماً يبحث عن عبارات تهز عواطفهم كما قال، قال : لنضرب على وتر إنسانيتهم. اخيراً صاغه، وزع على اسطح المنازل التي يعتلونها وفي الشوارع وحتى على أبواب المعسكرات القريبة، وكان الرد أن قتل في اليوم التالي شابان في رام الله وشابان في قراها، وزع في نابلس فكانت المذبحة، ذلك لم يمنعه من مواصلة طريقه ولم يمنعني من مواصلة طريقي.

كبر فضاء يوماً وراء يوم، كان خالد يمسكه بيده ويعلمه أموراً لا

انتبه إليها مثله، يأخذنا إلى الجبل، نتمشى بين النباتات والحجارة، ينادي ابنه وكانه اكتشف شيئاً : تعال، هذه هي نبته الزعتر البري، هذه هي نبتة الميرمية، هذه هي نبتة الطيون التي غنت لها فيروز، البلوط، العليق، هذا هو حجر الصوان حيث كان اجدادنا يشعلون بواسطته النار، هذه هي "الحوّرة" التي كانوا يبنون بها بيوتهم، وهذه بقايا "أتون"، وهذه بقايا "قصر" حيث كان آباؤنا يحرسون كرومهم، وهذه،... وهذه.

كان فضاء قد تجاوز الرابعة من عمره قبل بدء الانتفاضة رغم أنه بدا عليه أنه كبر من ذلك نسبة الى حجمه او كلماته حسن اختياره لها، رغم ذلك كان طفلاً، كان يأخذه خالد معه عندما يذهب عند احد اصدقائه في مخيم قدورة، اقتحم الجيش البيت في احدى المرات، سأل أباه إن كان يستطيع أن يهتف للمنظمة أمامهم، أحرج خالد، لكنه أخبره ان يقول ذلك بصوت منخفض، وبعد اكثر من عام وحين عرف فضاء ان أباه يلتقي اسرائيليين، ابتدأت التساؤلات من جديد : لماذا تلتقي الذين سرقوا ارضنا وفرضوا على عمي عبد القادر وعمي مروان ان يعيشا في الكويت؟! هل هناك بالفعل اسرائيليون جيدون؟! هل هناك جنود طيبون؟! لماذا لا يعطونا هؤلاء الطيبون البيوت التي يعيشون فيها لإنها لنا وبناها عمالنا؟! لماذا يبيعونا الخضار والفواكة إذا كانت قد زرعت في ارضنا؟! لماذا وعدهم الرب بهذه الأرض؟! وهل لهم إله غير الذي نعبده؟! اين هي الارض التي وعدنا ربنا بها؟! كيف استطاع هؤلاء التغلب علينا واخذ ارضنا؟! ألم نكن نملك بواريد ونمنعهم من دخول ارضنا؟! ألم يكن أجدادنا يملكون سيوفاً مثل تلك التي نراها في مسلسلات التلفاز؟! هل نستطيع طردهم بالقاء الحجارة عليهم؟! كيف يصبح الإنسان شهيداً؟ هل الجنة جميلة؟! هل يوجد هناك اسرائيليون؟! وإذا وجدناهم هناك، هل يحملون بواريد يقتلوننا بها؟! لماذا لم تقل لهم باننا لا نريد مشاكل؟ هم يعيشون حياتهم ونحن نعيش حياتنا، نحن نريد أن نلعب في الشارع دون أن يضايقوننا ويمسكون الشباب، أنا اكره قنابل الغاز والصوت، لماذا يتدخلون في حياتنا ؟! حتى

مدرستنا تم اقتحامها، إنني اكره الجنود، حتى لو صار لنا دولة فانني لن اصبح جندياً.

اسئلة كثيرة لم يكن من السهولة الإجابة عليها لطفل في مثل ذلك العمر، كان كلما اصطحب خالد فضاءً إلى المخيم يأتيهم محمد الذي يسكن جاراً لمروان الآن، أحبه فضاء حباً شديداً وكان فضاء يوصي محمد قائلاً : انتبه لنفسك فالجنود يمسكون بالشباب، لا تدعهم يمسكون بك، لا تدعهم يضربونك، واذا أمسكوا بك اخبرهم بانك كنت تلعب ولا تعرف الذين يلقون الحجارة، انني لا ارغب بأن اكبر حتى لا يمسكون بي، وأريد ان اكبر حتى اصبح قوياً. ولاحظنا ان فضاء واصحابه يجمعون البيانات من الشارع ويعيدون توزيعها على بيوت الحي، يخبئونها في جيوبهم او تحت ملابسهم ويدورون على البيوت ليلقونها امام ابوابها، سألته عن سبب قيامه بذلك قال: إن الشباب الذين مثل محمد هم الذين يلقونها في الشارع واذا جاء عُمال البلدية او مرت دورية من هنا فانهم سيلقونها في القمامة أو يأخذونها، فالافضل اذن ان يقرأها الناس، وأوصاني ان لا اقول لأحد. سألته : وهل تعرف ما في داخلها، قال: لم أقرأها، فأنا لا اعرف القراءة جيداً، ولكنها بالتأكيد تقول للجنود ان يرحلوا حتى نبني لنا دولة. فرحت لما يقوم به فضاء، لكنني صرت اكثر حرصاً عليه، إذ دخل الجيش مرة الى بيتنا ليفتش البيت، دخل فضاء واستلقى في سريره، أمروه الجنود بالنهوض، حاول الامتناع، خاف، صار يرتجف، وعندما شده الجندي نحوه صرخ وأمسك بي. رفع الجنود الفراش فاذا تحته مجموعة من البيانات لم اعرف عنها من قبل، جمعها الجنود وطلبوا هويتي حتى يأتي خالد، طلبت ان اكلم الضابط وأقسمت له أننا لا نعرف عن هذه البيانات وان فضاء ربما جمعها بدافع اللعب، اصر في البداية ان يأخذ بطاقة الهوية لولا أنني اثبت ما قلته بآثار الغبار والطين عليها دليل على انها من الشارع، وهكذا خرجوا محذرين ومنذرين ومهددين حتى لمثل تلك الأعمال.

مرت تلك الليلة دون أن استطيع النوم، تذكرت حين ولدت فضاء حيث كان خالد وأهلي ينتظرون خارج غرفة الولادة، أما الآن فانني وحدي، ولدت وحدي، وفرحت وحدي، وحزنت وحدي وبكيت وحدي، لكني شعرت بأهمية تحمل كامل المسؤولية، طوال عمري وأنا أتحمل مسؤولية لكنني الآن أشعر بها اكثر من قبل، وددت لو كان خالد بجانبي، يقبلني ويمسد على شعري ويقول : مبروك. وددت لو كان يجلس على طرف سريري، يمسك بيدي ويتطلع بعينيه نحو إبنه الجديد، يتفحصه ويقول بضع كلمات ببساطة، لو كان حياً لبكى بسبب ألمي، لو كان حياً لتخلصت من ألمي وأنا اضع رأسي على كتفه أو بين يديه، احتملت الآلام كلها، كبتُ بعضها وتخلصت من الأخرى، سالت الآلام مع دموعي، وددت أن اطيل في البكاء لكني خفت ان أنهار وأنا أعلم ان امثالي لا يستسلمون، تخيلت خالداً ماثل أمامي، وجدت المهام الكثيرة ملقاة على كتفي، يجب ان احتملها وأحملها، انقطعت الدموع مرة واحدة ووجدت نفسي أهلاً لهذه المهام، شعرت بالفخر وأنا أحافظ على عائلتي او عائلة الشهيد كما يسمونها، أفخر بهم وبه وبنفسي طوال عمري، أنا أعرف ان مكانتي الآن ستتعزز أمام أهله والجيران وسيفخر أهلي بابني الجديد، ان الأهل يحاولون التخلص من معاني الذكورة لكن المجتمع يقيدهم، كم كنت أود ان يكون المولود بنتاً، فهذه هي الولادة الأخيرة لي، تصورت من قبل أن اكوّن عائلة نموذجية فيها الذكور وفيها الإناث، لكن ما ولدته يُرضي المجتمع وأهله خاصة، أنا جزء من هذا المجتمع وهو يفرض علي حكاياه واعتقاداته سواء

اقتنعت بها أم لا، حملت إبني في الصباح بعد أن اخبرتني الممرضة بأذن الخروج، حملته دون مراسيم، دون أن أوزع حلوى، دون ان أرى ذلك الضجيج المفرح حين تخرج الأم حاملة إبنها بين يديها لأول مرة، فوجئت بوجود مروان هناك ويبدو أنه فوجيء بي هو الآخر، اندفع نحو ابني وقبله، قال : إنه يشبه خالد.

- إنه خالد، سميته خالداً.

بكى، شعر بعدم قدرته على القيام بواجبه اتجاهي وشعرت انا كذلك بعدم قدرتي على القيام بواجبي اتجاهه، سألته عن سبب وجوده، اخبرني بان زوجته ولدت طفلاً، فرحت له أيضاً، تمالكت نفسي محاولاً أن لا أذرف دمعة، كنت اعتقد بأنني استطيع ذلك امام الاخرين، وددت ان لا ابكي حتى امام مروان، لكن ها هي واحدة تود القفز من مكانها، شعرت انني لست وحدي حتى في مثل هذه الظروف، دعاني لاكون عندهم في هذه الفترة، ودعوته انا كذلك، لكنني فضلت ان اعود الى بيتي، فالجيران في انتظاري وانا مشتاق لهم، لا اود ان يشعر الجيران بان بيت خالد مهجور، والكل الآن في انتظار خالد الصغير، سلمت عليهم، تحادثت معهم قليلاً وانطلقت الى البيت.

خالد كان يحلم، ولطالما حاول ان يُطيرني معه بعيداً في الاجواء غير المرئية، كنت أحب أحلامه رغم معرفتي بأنها لن تتحقق، كان يعمل لنفسه كأسه المفضل، سماه "خلطة" يغلي الماء ويلقي بالاعشاب البرية فيه، "بابونج" و"ميرمية" و"قرينية" و"زعتر" ونباتات اخرى، ويبدل هذه ويغير كمياتها باحثاً عن أفضل "خلطة"، عملت له كأساً مرة، ونسيت ووضعت فيه سكراً، لم يشربه، قال : يجب ان نعيش بطبيعتنا وعلى طبيعتنا، لا أريد ان احس ان الخلطة هذه تشبه الشاي، اريدها كما هي. الشيء الوحيد الذي كان يحبه حلواً هو العسل لإنه حلو بطبيعته، لكنه كره عسل السوق المغشوش، كان يعرفه قبل ان يتذوقه، سألته عن قدرته على معرفة ذلك، قال: أنا نفسي لا اعرف، قد "اعقدك" معي يا نجوى، لكن ماذا أفعل بنفسي! هذه النفس تعذبني، أهرب منها إلى هذه الاحلام وهذه الطقوس، حين أجد مشاكل السياسة

والكبار، أهرب للعب مع الأطفال، كم أود أن أرجع طفلاً، العب حين أريد، اغضب حين أريد وابكي كما اريد، يبدو أن هناك حاسة إضافية خلقت معي اسمها الطبيعة، استطيع أن أعرف إن كانت هذه المادة طبيعية ام لا، ربما يكون ذلك بسبب انني أعمل في مصنع للأدوية وأنا اكره الصناعي، ربما يكون ذلك رد فعل على الوسط الذي أعيش فيه، اكره الاصطناع والتصنع، اكره أن اسمع احدهم يتحدث عن صفات ليست فيه، اكره أن أرى أحدهم يُمجد نفسه ويجعل منها إلهاً، اكره أن استمع لنصائح أحدهم وهو لا يستطيع تطبيقها على نفسه، أحب أن أرى الأشياء كما هي، احب ان اسمع صوت الطبيعة وكل شي فيها كما هو ، احب ان اكون انساناً واحس بانسانيتي، لا ارغب ان تُفسد علي حياتي، اريد العالم بدون غبار، احب السماء بدون ضجيج، احب الارض بدون دخان، احب الحياة بدون ممات، احب الناس بدون جفاء.

بعدما تعارفنا وخططنا للزواج، رأيته يدقق النظر فيّ ويقول : لا احب مواد الزينة التي تستخدمينها.

- وهل تريد غيرها؟! من أي صنف؟ قلت.

- لا اريد استعمال مواد الزينة مطلقاً، اريدك هكذا بدون رتوش، اريدك ان تكوني على طبيعتك، وان تتصرفي كما انت وبدون تصنع.

- ولماذا تطلق لحيتك! إن معظم الرجال يحلقونها.

- هم المتصنعون، اما انا فسأظل كما أنا، سأطلق لكل شيء عنانه.

خالد كان يحلم، كان يتعالى على المشاكل التي تحدث في المجتمع الفلسطيني، كان يتعالى على الحروب والمشاكل بين الدول، كان دائماً يقول : هؤلاء مجرد العوبة بايدي أشخاص أقلاء وحاقدين، ما معنى أن تهدر دماء الهنود المسلمين والهندوس على موقع أثري قديم بينما يموتون من الجوع، ما معنى الكره المتواصل بين اليابانيين والصينين أو بين الهنود والباكستانيين! ما معنى أن تنشب حرب طويلة بين العراق وايران! ما معنى الأخذ بالثأر! ما معنى ان نجمع الفلسطينيين في قوى تحاول ان تسحق الأطراف الأخرى! ما معنى أن نهدر دماء أبرياء! وما معنى أن تهدر دماؤنا! هؤلاء وأنا نعيش في

مجتمع غير إنساني لا تسوده العدالة والإنسانية، وحتى نكون إنسانيين يجب علينا ان نصعد إلى أعلى، أن ننظر إلى كل الشعوب من نقطة فوقها، إننا نتحارب نحن واليهود منذ اوائل هذا القرن، أنا لا أريد أن أناقش إن كانت هذه الأرض لنا أم لهم، لهم حق العيش ولنا نحن حق العيش، إننا نتحارب على قطعة من الأرض لا تبلغ مساحتها مساحة ولاية في امريكا، هل تستحق هذه القضية كل هذه الضحايا، نريد دولة لهم ودولة لنا وينتهي الأمر بدل ان نحاول القضاء عليهم او القضاء علينا ولا نصل إلى نتيجة.

من هنا، وإنطلاقاً من هذا المبدأ الإنساني كان مبادراً لصياغة وثيقة الاستقلال الفلسطيني التي أعلن عنها في الجزائر، هكذا أخبرني اصدقاؤه بعد استشهاده، لم يكن يعرف ان آراءه مهمة لهذه الدرجة، كان كثير الجدل والمناقشة خاصة مع اصدقائه، لم يكن يعرف بأنهم كانوا أعضاءاً في القيادة الوطنية الموحدة إلا بعد اعتقالهم ومن ثم اعتقاله، كانوا يأتون إلى بيتنا كثيراً وكان يذهب عندهم أيضاً، كنت انا الأخرى أجالسهم وأناقشهم، وفي حين كنت أرى ان الشعب الفلسطيني يجب ان يواجه الاحتلال بكل ما يملك من وسائل، كان يقول بأن الانتفاضة يمكنها فقط ان تحمل رسالة سلام، يجب ان نقنع العالم بذلك، يجب ان نقنع جيراننا بأننا نريد السلام، يجب ان نصل إلى كل بيت، فلسطينياً كان ام اسرائيلياً، حتى الجنود يجب ان يقتنعوا باننا نريد السلام، يعيشون في دولتهم ونعيش نحن في دولتنا.

خرجت افكاره إلى النور وصارت "النداءات" تحمل لغة تفاوضية وتدعو إلى السلام، فمددت فترة فتح المحلات التجارية ونجحت القيادة الموحدة في السيطرة على الجمهور بعدم القاء الحجارة يوم مظاهرة السلام المشتركة، كان فرحاً جداً وهو يسمع ما ردده على مسامع الكثيرين كما كان يقول لتبثه الاذاعات ويترجم الى اللغات الاخرى رغم رد رابين وشامير السلبي اللذين لا يقبلان التفاوض مع "الارهابيين" على حد قولهما.

اعتقل إدارياً ستة أشهر في صحراء النقب، ولم تتوقف نداءاته إلى

الاسرائيليين بالتجرؤ لصنع السلام، نُشرت مقالاته في كل الجرائد والمجلات العربية مترجمة عن العبرية والانجليزية، وقبل خروجه بشهر توصل إلى مبادرة سياسية مفصلة عن طبيعة العلاقات الفلسطينية الاسرائيلية في المياه والكهرباء والمواصلات والسياحة والآثار والسياسة، وقبل ان يُفرج عنه سُمي بداعية السلام الفلسطيني، كثرت اللقاءات الصحفية معه وعلا شأنه كثيراً حتى قتل.

* * * *

ضاعت كل احلام خالد بالهجوم السلمي على الاسرائيليين مع اول هجوم صاروخي عراقي، انفجار الصواريخ فجر معها كل الأفكار التي حاول معظم الفلسطينين وبعض الاسرائيلين دفنها، هكذا أرى العالم في هذه الفترة من الحرب، إنها تعيد صياغة منطق جديد، الاسرائيليون يعترفون بان كل العالم المحيط بهم يكرههم، أعلنوا عن ذلك في نشراتهم باللغة الروسية، قالوا للقادمين الجدد بأن الجنود العرب من سوريين ومصريين في قوات التحالف مع الولايات المتحدة يطلقون زخات من الرصاص من بنادقهم كلما سمعوا عن صاروخ يقع في اسرائيل، وبسبب هذا الكره لم يتدخلوا في الحرب مباشرة، نصحهم، الامريكيون واعوانهم بذلك، نصحهم الغرب ونصحهم العرب ايضاً، حتى النظام المصري الذي وقع اتفاقية سلام معهم منذ ما يزيد على عشر سنوات فعل ذلك، تدخلهم يفك التحالف الغربي والعربي أيضاً، الاردن هدد، مصر هددت، سوريا هددت وايران ايضاً، إنهم جسم غريب سيعيش على هذه الارض بالقوة.

الشعارات التي رفعتها القيادة العراقية تجاوزتها الاحداث واضافت إليها، العالم الثالث مهدد، المسلمون مهددون، العرب مهددون وحتى أوروبا وعلى راسها المانيا واليابان مهددتان رغم دعمهما للتحالف، فرنسا هي الأخرى مهددة رغم اشتراكها في التحالف، العالم كله مهدد، دافيد ليفي اعترف وبعد الخلافات بينه وبين الامريكيين قبل الحرب

بأن هذا هو زمن الامركيين، وهذا أحد أسباب عدم الرد الاسرائيلي الفوري ضد العراق، ودعا ليفي كل الدول والشعوب للانصياع للأوامر الامريكية. الوحش قادم، لن يترك بلادنا وستستمر المعركة طويلاً حتى لو احتلت القوات الحليفة الكويت وأعادت الشيخ جابر حاكماً لها، الهدف الامريكي المعلن تدرّج من الدفاع عن ارض السعودية إلى تحرير الكويت إلى القضاء على العراق كقوة اقتصادية وعسكرية نامية في المنطقة.

إن منطقاً جديداً يعيد بناء نفسه يا خالد، إنه العالم الحر، لو كنت حياً لغيرت أفكارك كلها، الانسانية تموت تحت أصوات المدافع والآف الأطنان التي هزّت بغداد ومدن العراق، الألمان ما زالوا يدفعون للاسرائليين دون كلمة شكر من مسؤوليهم بينما اليابان تدفع للقوات الامريكية التي هُزّت فيها هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية، المنظمة يجري تشويه موقفها من أزمة الخليج، يقولون ليل نهار بأن المنظمة تقف إلى جانب العراق ولم يوضحوا انها تقف معه ضد الغزو الامريكي وضده في احتلاله للكويت، الوحش الامريكي رفض كل المبادرات العربية والغربية وتحول مجلس الأمن الى اداة في يده، تصور يا خالد ان المدنيين في بغداد يُقصفون ليل نهار ولا تسمع لهم صوتاً بينما اهتزاز نوافذ الاسرائليين يعلو في إذاعات الغرب وشرقها، التاريخ يعيد بناء ذاته حتى لو سقط صدام وسقط العراق، لو ما زلت حياً يا خالد لرأيت كل شيء بعينك وسمعت كل شيء بأذنك.

إنها القوة يا خالد، الحجر ارسل رسالة، لكن رسائل السلام تضيع في الطريق، هل هذا عالم ليس لنا يا خالد!! الحجر ليس قوة كافية لنيل الحقوق، الامريكيون والاسرائيليون يملكون قوة ويملكون إعلاماً، إنهم يمسحون دماغنا ليل نهار، قالوا : يجب ان تتابعوا إذاعة اسرائيل ليل نهار عبر الموجة المفتوحة، موجة مفتوحة على مصراعيها لفتح عقولنا على إنسانيتهم التي يدّعون، وبذلك يعيدون برمجة عقولنا، يحاولون ذلك بكل ما استطاعوا من قوة، قالوا : ممنوع قيام أية مظاهر انتفاضية لإننا في حالة حرب. يمنعون التجول

ويبلغوننا انه بسبب حالة الحرب، بينما يقولون إنهم لا يشتركون في الحرب، منع التجول هو الحالة السائدة بينما رفعه هو الحالة الشاذة، إنهم ينادون عبر سماعات دورياتهم : مرفوع التجول حتى إشعار آخر. وهذا الإشعار لا يستمر اكثر من ساعات تقل عن اصابع اليد الواحدة، وحين تنتهي فترة رفع التجول يصيحون على الناس : بيتك، بيتك. يعاملوننا مثل الدجاج : بيتك، بيتك. وكلما ضرب حجر او أحرق إطار ينادون : بيتك، بيتك. هم من يقولون ذلك يا خالد، حتى كلمة "مرفوع التجول" يترفعون عن لفظها فهم يقولون حيناً : ممنوح او مسموح حتى ممنوع وبذلك نخسر ساعات اخرى للتجول، اكثر من اربعين عاماً ونحن نعيش تحت منع التجول، الأبعاد الأربعة يختزلونها في البعد الامريكي فقط، الزمن يختزل في الدول الاشتراكية واوروبا والعالم الثالث في الزمن الامريكي، لا زالت شعارات القوة الامريكية البحرية والبرية والجوية تطبع على الملابس والسيارات والاحذية والمحلات التجارية رغم ان الجميع يهتف بأن امريكا رأس الافعى، والافعى تلتهم الأخضر واليابس، تلتهم السهول والجبال والبحر والصحراء، الاسرائيليون والامريكيون يرفضون الربط بين قضية فلسطين وقضية الخليج ومنع التجول مستمر على اكثر من مليون ونصف المليون فلسطيني، أغتالوا أبا إياد وابا الهول وأبا محمد العمري عشية الحرب ويقولون بأن لا علاقة بين القضيتين، منعوا اللقاءات الصحفية مع قيادات فلسطينية في الداخل، هُدد بعضهم وتم اعتقال البعض الآخر ويقولون بأن لا علاقة بين القضيتين، القيت الحجارة والقيت زجاجات المولوتوف على الجيش في فترات الاستراحة من منع التجول ويقولون بأن لا علاقة بين القضيتين، القوا القبض على خلايا إدّعوا بانها عميلة للعراق، احرقت مراكز الدول الحليفة في القدس، انطلقت المظاهرات المؤيدة للعراق، سمعت الزغاريد والأغاني وصيحات الله اكبر ويقولون... الغارات الاسرائيلية في الليل وفي النهار تدك مخيمات الفلسطينيين في لبنان وما زالو يقولون ما يريدونه. إنها القوة يا خالد، إنهم يحاولون ابتزازنا جميعاً، زعماء السلطات المحلية العربية

في اسرائيل يتسابقون لإثبات أهليتهم في الاخلاص للدولة الصهيونية، السلطات المحلية العربية تتسابق لايواء اليهود المنكوبين من الصواريخ العراقية بينما خيام الصليب الاحمر التي منحت لمن هدمت بيوتهم من الفلسطينين صودرت، والمخيمات الفلسطينية ما زالت قائمة والعراقيون لا يجدون من يأويهم، الأندية والمؤسسات العربية في اسرائيل تتسابق للتبرع بالدم للجرحى اليهود ويرددون ما ردده زعماء اسرائيليون من قبل بأن هذا هو أبسط الأعمال التي يقومون بها ما داموا لا يؤدون الخدمة في الجيش الاسرائيلي، "رفائيل ايتان"، وزير الزراعة، يطالب الطلبة العرب للمساعدة في قطف الحمضيات والورود التي تجلب ملايين الشواقل للدولة، معظم الوزراء الاسرائيليين أثنوا على العرب بانهم اثبتوا إخلاصاً للدولة العبرية الا شامير، إذ قال أنه لا يعطي علامات، فكل العرب عنده سواسيه، حولون، بتاح تكفا، النفي يعقوب، يهودا والسامرة، تتغلغل في المصطلحات المستعملة بين الناس، حتى الاطفال ومن ضمن ألعابهم يستعملون كلمات عبرية، فضاء يغني :

احاد، شتايم، شالوش
ليش ما ضربتوش؟!
لأني بعرفوش

أربع خميش شيش
لسه مستوعبتيش؟!
لإنك ما سمعتيش

شيفع شموني
ليش بتلوموني
هيك علمتوني
ولا مدريتوش؟!

تيسع عسرة، تيسع عسرة
نبتت البزرة
راحت اليسرة
وأجت العسرة
وما تحركتوش!

يخرج فضاء ويلعب مع زملائه لعبة الانتفاضة، يصرخ في الأطفال بأن هناك منع تجول حتى نكاد نصدق ذلك، يذهبون ويشترون كبريتاً ويسحقون عيدانه، يحشونها في رصاصة فارغة، ويلقون عليها الحجارة أو يضربونها بالأرض الصلبة فتخرج صوتاً مثل صوت القنابل الصوتية، وكثيراً ماوجدت في جيوب بنطال فضاء كبريتاً، أدركت حينها انه يشعل عربة القمامة في الحي وزملاءه، وهذا ما كان يستدرج الجيش لوهم مواجهة، وحين يسمعهم فضاء يفرضون منع التجول، يضحك ويقول : اسمعي يا امي، انهم يقولون ما نقوله ونحن نلعب : ممنوع التجول، بو. إنهم يطرقون الأبواب، انظري اليهم، سنلعب ونفعل مثلهم بعد ان يذهبوا. أصرخ فيه ان يهدأ حتى تنتهي هذه المشكلة، امسك به وندخل احدى الغرف واراقب ما يحدث من خلف النافذة، لكن فضاء يصر على ان يراهم، يحضر كرسياً ويقف عليه، يزيح غطاء النافذة او يذهب الى نافذة اخرى، وينادي عليّ ان أراهم، وإذا ما كانوا يتحدثون مع احد المارة او مع الجيران فانه لا يدعني اسمع ما يقولونه، إذ تكثر اسئلته ويعتقد انني أفهم لغتهم، لكن اذا جاء الجيش ودخل بيتنا، فان علامات الارتباك والخوف تبان عليه وحينها احاول طرد اي معلم للخوف عني وعنه، احاول ان اوهمه بأنني قوية اكثر مما انا في الواقع، لقد كان فضاء يعطيني القوة ويشجعني على ذلك، ففي احدى برامج التلفاز عن الحيوانات في الغابة، جاء اسد وبدأ يزأر، خاف فضاء، فصرخت بالأسد ان يخرس، هدأ الاسد وابتعد عن الكاميرا، اعتقد ابني انني انا الذي اخفته ومن يومها وهو يعتقد ويتفاخر امام زملائه بانني هزمت الأسد، في ليلة من اوائل الخريف جاء

الجيش بعد منتصف الليل، صحوت وصحى فضاء ايضاً، امسك بي وقال لي : افعلي كما فعلت مع الاسد. كان رجال مخابرات في بحث عن ابن الجيران، فاذا بالضابط يقول : أنت نجوى! قلت : نعم. سأل : كيف العمل النسوي؟ أجبت : جيد. قال : نحن نراقبك، انتبهي لنفسك. نظرت نحو فضاء فوجدته ينظر نحوي هو الآخر، فقلت : اعملوا ما تستطيعون، انا لست خائفة منكم. سمع فضاء ذلك فتدخل هو الآخر وقال : انا أيضاً لا اخاف منكم. وأختبأ خلفي.

* * * *

قرف، قرف، قرف، قرف، إننا نعيش القرف، ونحارب القرف طوال حياتنا، فكيف نستطع التخلص منه؟! كل هذا يحدث يا خالد، إنهم يلعبون باعصابنا، وفي حين يخرج الناس من بيوتهم لاستقبال الصواريخ وهم يهللون ويزغردون ويكبرون ويحاولون دفع الصواريخ الى المواقع التي يريدون، يكلمونها كما لو كانت إنساناً : تعال من هنا، إذهب الى هناك، توجه الى ذلك الموقع. كادت جارتنا تصاب بالهلع حين اعترضت احد صواريخ الحسين أربعة صواريخ باتريوت، توقفت زغاريدها فجأة، لكنها رأت "الحسين" يتوقف، أتاح الفرصة لاصطدام "الباتريوت" ببعضها ثم إنقض على فريسته. في ذلك الحين يطلع علينا المذيع الاسرائيلي ليعلن بأن الصاروخ إنفجر في الضفة الغربية ولم تطلق صواريخ الباترويت لبعثرته، مذيعة التلفاز تضرب كفاً بكف وتهرب ثم تعود فتعلن باللغة العبرية صفارة الأمان بينما المذيع باللغة العربية لا يعلنها، الكمامات يبدأ توزيعها في منطقتنا بعد عشرين يوماً من اندلاع الحرب، كمامات مضى على صنعها عشرون عاماً بلا إبر أعصاب وبلا مسحوق البودرة الطبية، وزعوا خارطة لست مناطق لئلا يعلنوا أين تسقط الصواريخ، منطقة "هـ" كانت من نصيبنا وحيث تضم منطقة واسعة مأهولة بالسكان معظمهم من العرب في المثلث وأريحا والخليل وما بينها، إنهم يوحدون العرب في منطقة واحدة

ويلعبونا باعصابنا.

أعلنوا في إذاعاتهم ومنذ الأيام الاولى للحرب بأنهم بدأوا بتوزيع الكمامات في الضفة الغربية، كل ذلك حدث بلقاءات صحفية استفزازية، "يوني بن مناحيم" تجده أينما تذهب، سأل أهالي غزة وبعلامات التشفي : ماذا تفكرون بعد ذهاب صدام حسين؟ فأجابه أحدهم: نحن موجودون قبل التاريخ وبعده، جاء عبد الناصر وذهب ونحن باقون، وإن ذهب صدام، نحن باقون. حضر "حفلات" توزيع الكمامات وسأل الناس هناك : لماذا تستلمون كمامات وأنتم تساندون صدام حسين؟ هل تخافون ان تسقط صواريخه عليكم؟ أجابه البعض بأن الصاروخ لا يفرق بين عربي ويهودي، بينما أجابه البعض الآخر بانهم لا يخافون ولكن الاحتياط واجب، واستشهدوا بقول الرسول : "اعقلها وتوكل" زار قرى عربية اهتزت شبابيكها وكسر زجاج بعضها فقالوا: لم يقع الصاروخ في قريتنا وأنت تعرف أين وقع. "يوني بن مناحيم" يبحث عن ثغرات يدخل منها فيجد الجميع يصده.

الإذاعة الاسرائيلية وتلفازها يحاولان تطويقي من كل جانب، لقد كنت من ضمن أبناء الحي الذين احكموا إحدى غرفهم، لكني لم استعملها حتى الآن، إنني أتابع اين تسقط الصواريخ، طبعا سأستعملها إن احسست بالخطر، لكن الإذاعة والتفاز لا يكتفيان بمنع التجول، إنهما يحاولان ان يسجناني في داخل الغرفة فتسجنني اخبارهم، لانني احب الحياة استمع لاخبارهم لاعرف متى واين تنزل الصواريخ، ولانني احب الحياة احاول الهرب من تلك الاخبار، كل حياتنا سجن في سجن، الايام تمر والاسابيع تمر والسنين تمر ونحن لم ولا نجد مكاناً للترفيه فيه عن انفسنا، لم تعد أريحا مشتى لنا، لم تعد متنزهات رام الله مصيفاً لنا، الاحتلال يأكل من عمرنا، وإذا ما قدم لنا شيئاً فانه يحاول ابتزازنا واللعب باعصابنا، اربعة ايام مرت وعلى مدارها من صبح وضحى وظهر وعصر يطالبونا بالتجمع عند البلدية لاستلام الكمامات، لم اذهب حينها فقد كنت اعتني بخالد الصغير ولم يبلغ الأربعين يوماً منذ ولادته، لكن الذين ذهبوا كانوا يجّدون الجيش

ممسكين بالشباب ويشبعونهم ضرباً، لعبوا باعصابنا الى ان جاء احد موظفي البلدية واخذ البطاقات العسكرية واحضر الكمامات، لم استلم سوى واحدة لي وظل فضاء وخالد بدونها، ربما، لوكنت حياً يا خالد لرفضتها، لكني انظر الى الامر بصورة مختلفة، ارى ان نأخذ حقوقنا حتى لو كان جزء منها تافهاً، لهذا قررت اخذها، اعطونا الكمامات الواقية دون ان يخبروا حامليها بكيفية استعمالها، إنهم يريدون خنق الناس بها ليقولوا بعدها بأنهم ماتوا اختناقاً لإنهم بدائيون.

إنني مشوهة بقدر التشوه الذي يحيط بي، احاول ان اخرج من هذا الجو، لكني اجد نفسي في رفضي لمقولات الاعداء ارفض ما يحيط بها، تصور يا خالد بان الاغاني التي تعودنا على سماعها في ايام الشباب لام كلثوم وعبد الحليم ونجاة الصغيرة ووردة الجزائرية وحتى تلك الحديثة لراغب علامة ووليد توفيق وغيرهم، تصور بأنني اجد لها طعماً آخر غير الذي احس به حين اسمعها من اذاعات غيرها، اجد هذه الاغاني منتقاة بشكل اجد فيه نفسي احاول تفسير كل الكلمات والعبارات بشكل لم افكر فيه من قبل، فيروز التي اسمعها منهم غير التي اسمعها من اذاعات غيرهم، "على جسر اللوزية" تنتقل بي مباشرة الى جسور العراق المهدمة، "موعود" تتحول في ذهني الى اللقاء المتوتر مع عدوي الوحش بدل ان يكون مع الحبيب، "إنما للصبر حدود" تصبح أغنية تنطق بلسان الاسرائيليين والامريكيين، "دندنة" تتشفى بنا وتقول بأن قوة الغير بنيت على اكتافنا، "لا تلعب بالنار" هي مجرد تحذير مباشر ونهائي لنا ولكل العرب وتذكير لنا بأن اصدقاء اليوم سيبيعوننا في اقرب فرصة، "هابي بيرثدي تو يو" تبلغنا بأن "الجميل" نزل الى الساحة ويتمختر فيها دون ان يستطيع احد منعه، دون مقاومة او صد او رد، انهم يتوعدون ويهددون ويتشفون بنا وبقياداتنا، لم اجد اغنية من تلك التي سمعتها دون معنى مقصود ومخطط من قبل محللين نفسانيين، تقول أحدى الاغاني :

"لا كل نظرة تبقى برية
لا كل كلمة حلوة غبية
خايف عليك من سلامة النية
خايف على قلبي من الحنية
ده اللي صدمني وفرّح الناس فيّ."

الإذاعة الاسرائيلية تذيع الاغاني الخليجية واحدة تلو الأخرى، وتلتقي مسؤولين ومواطنين كويتين، كلما استمعت إلى إذاعتهم أصبت بالغثيان، كل هذه الأغاني مدسوسة، لكني يا خالد وجدت اغنية واحدة جميلة جداً كنت وما زلت متلهفاً لسماعها، موسيقاها رائعة وصوت المطرب الأجش جميل هو الآخر، إنها صفارة الإنذار وصوت "نحمان شاي" يعلن عن هجوم صاروخي على اسرائيل، لقد كانت اغنية الموسم، كانت الدواء الذي نتناوله لمعالجة آثار السم الذي تلقيه وسائل الإعلام الاسرائيلية والغربية، كانت الطبيب النفسي لمعالجة الضغط العصبي والنفسي الذي تحدثه الثقافة الغربية وانعدام القيم الإنسانية تحت يافطة الإنسانية.

إنهم لا يخجلون، إنهم يحاولون أن يضعوا غيرهم في موقع حرج بينما يضعون أنفسهم كذلك دون ان يدروا، فالتحالف الذي يضم دولاً عربية، والذي يتغنون به، يهاجمونه في ملاحظات "شاؤول" بعد نشرة الاخبار، يهاجمون هذه الدول العربية الحليفة، يحاولون أن يقنعوا الجماهير العربية بأننا بربريون، إننا نعيش في "خربة خزعة"، نستعمل الأرض بصورة بدائية، ننقل الماء على رؤوس نسائنا وعلى جنبات حميرنا، ونتبرز في العراء ليختلط بالاعشاب والذباب والبعوض، جاء المتحضرون لانقاذنا، ساقونا طوابير، نساءً ورجالاً واطفالاً، البكاء والذل والخنوع يكسو ملامحنا، أنقذونا من هذه الحياة الوسخة والقميئة ونقلونا إلى حياة السيارة والكهرباء والتفاز والإذاعة، هكذا ينظرون إلينا، وفي مقاومتنا لهم يعتبرون ذلك مقاومة للحضارة وللمستقبل، إننا نصر على أن نبقى بدائيين نريد الإبقاء على "خربة

خزعة" لاننا وحشيون بينما هم يفرضون الحضارة فرضاً ويقضون بذلك على خربتنا ويطردون أهلها ويساوون حجارتها وطينها بالأرض. إنهم يحاولون تفريغ ضمائر ابنائهم من الاحساس بذنوب الجرائم التي يقومون بها مثلما فعلوا في "الخربة"، التقوا باحد الجنود الذين حاربوا في السابق، حاولوا ان يظهروه بمظهر الوداعة، طلبوا منه ان يغني، فغنى لمحبوبته، سألوه عن الحرب فقال : ضللت الطريق في جبهة القتال مرة، فاذا بي اجد نفسي مطوقاً بمجموعة مخربين، صاروا يصيحون ويضحكون كمن وجد فريسته، رأيتهم يريدون الانقضاض علي من كل جانب، رأيتهم يقتربون مني ويريدون أكل لحمي نيئاً، رأيتهم كالوحوش يبرزون مخالبهم ويريدون غرزها في جسدي، صاح أحدهم أن أرفع يدي فاذا بي أجد نفسي ممسكاً بسلاحي وأمتهم واحداً واحداً، ثم راح يبكي ويقول : لا تتصور كيف احسست، لم أكن أود القتل لكنهم دفعوني لذلك، هم المجرمون الذين أجبروني على القيام بجريمة. ثم انقلبت تعابير وجهه وقال بثقة وبتأكيد : إنهم جاهزون لالحاق كل الأذى بنا لو استطاعوا، انهم يريدون قتلنا بصورة وحشية وبلا رحمة، اشعر بالفخر لاني قتلتهم. هل تجد وقاحة اكثر من تلك، العرب هم الذين يقومون بالحرب ضد الاسرائيليين وضد الغرب وضد تركيا وايران والهند، العرب هم أصحاب الانقلابات، العرب هم حاضنة العنف، إننا بربريون، هكذا وببساطة يحاولون تصويرنا، انهم ينصبون أنفسهم كحضاريين ونحن الذين يجب ان نتعلم الحضارة منهم درساً درساً، إنهم يحاولون القضاء على حضارة البساطة والصدق ويعلموننا حضارة العبودية والنهب والسرقة، فهم الذين يحبون الطيور التي ماتت وهاجرت نتيجة تسرب النفط الى الخليج، هم الذين يحبون طير "الفسفس" ولا يعلمون بانه طيرنا، هم الذين يحبون العصافير والطبيعة وهم انفسهم يقومون بقتل الانسانية والأطفال ويهجّرون الطيور من بغداد ومن كل حدود أرضنا. تباهوا بحبهم لغراب البحر والغطاس في نفس الوقت الذي يقتلون فيه الإنسان ومقدراته في بغداد وفي لبنان وفي كل مكان، تباهوا بحبهم للطير واذاعوا برنامجاً مصوراً

عن غراب البحر وهو مبلل بالنفط، يحاول الخروج فلا يستطيع، يأخذونه ويغسلونه ويعالجونه، أظهروا بأنهم يحبون الطيور إلى هذه الدرجة بينما اصطحب الامريكيون الدجاج في ثكناتهم العسكرية وفي مواقع المواجهة لتكون دليلهم إن كان هناك هجوم كيماوي، إنهم يظهرون تعاطفهم مع الغراب بينما يدفعون الدجاج لتكون في مقدمة المعارك غير آبهين بحياتها، هذا هو الغرب وهؤلاء هم الحلفاء.

* * * *

انتهى شهر تشرين الثاني دون ان تسقط الامطار، اقيمت الصلوات في كل مكان ولم تسقط الأمطار، مرت الأيام الأولى من كانون الثاني دون أمطار، البرودة كانت شديدة، تنخر العظام مثل برودة الصحراء، كلفنا ذلك كثيراً من انزواء في البيت وإشعال مدفأة النفط وإبقاء النور مشتعلاً ليل نهار ما دمت أنا وفضاء في البيت، أعلن وزيرا الزراعة في كل من اسرائيل والاردن عن حالة طوارىء في استعمال المياه وحذرا من موسم زراعي سيء، ستستورد اسرائيل مياهاً من تركيا، وتركيا منعت المياه لاكثر من شهر عن العراق، حالة حصار نعيشها وعلى كل الجبهات، سألني فضاء يومها: هل يعني هذه ان الله يعاقبنا لأن ارضنا العربية تحولت إلى مأوى للغزاة وقطاع الطرق؟!

- ربما إنه يعاقب الغزاة حتى لا يستطيعوا العيش هنا، لكن من أين لك بتعابير الغزاة وقطاع الطرق؟

- رأيتهم في مسلسلات الكرتون التلفازية، اليس لهم علم على شكل مثلث في وسطه عظمتان متعاكستان تحتضنان جمجمة؟

ونهض واحضر ورقة وقلماً ورسمه، ترددت في كيفية إجابته، أأعامله كطفل ينسجم مع الرسوم المتحركة ويبكي "سوار العسل" وهو يبحث عن أمه الحقيقية أم أعامله كمناضل يساهم في توزيع البيانات والنشرات على البيوت، وجدت نفسي أقول: علمهم الحقيقي هو ما تراه على الشاشة الصغيرة لكن ما يظهرونه لا يختلف كثيراً، إن علمهم الآن يمثل الأفعى المرقطة التي يحاولون رسمها على شكل نجوم في جزء منه، اما الجزء الآخر فهو كالحمار الوحشي المخطط احياناً بشكل

طولي واحياناً بشكل متعاكس.

- ارسميه لي يا أمي.

وجدت نفسي أرسم علمين، فقال: وهل هؤلاء بشر مثلنا، يتكلمون ويتزوجون ولهم ابناء؟

- نعم، فحتى الافعى لها اولاد، والحمار الوحشي له اولاد.

- وهل يحبون أولادهم!

- بالتأكيد نعم.

- ولماذا لا يحبوننا أيضاً؟!

- لانهم أفاع وحمير وحش، وهم سيعيشون فقط إذا أعلنوا الحرب علينا.

انهارت الأسئلة عليّ مرة واحدة، سؤال يتبعه سؤال، إجاباتي تبحش في مخيلته أسئلة أخرى، حاولت ان تكون الاجابات لها علاقة بما يشاهده على الشاشة الصغيرة، الرسوم المتحركة وأفلام الكرتون تسيطر على مخيلته، لم استطع الخوض في التفاصيل لإنني لا اشاركه متابعتها جيداً كما كان يفعل خالد، منذ ذلك اليوم قررت أن اتابع معه رسومه لاستطيع فهم عالمه.

قبل منتصف شهر كانون الثاني اغلقت المدارس وما فتح من المعاهد والجامعات وبعض المؤسسات، وفي الساعات الاولى من السابع عشر من ذاك الشهر مرت سيارة الإطفاء لتعلن خبر بدء الحرب، كان صوت من يذيع الخبر كمن يوزع بياناً، فالدورية كانت تصيح بصوتها وراءها، وبذلك ساعدت على نشر الخبر في الأحياء، وفي الرابعة صباحاً أعلن عن فرض منع التجول حتى إشعار آخر، تجمعت النسوة والشباب والرجال أمام بيتي، راح كل منهم يبوح بما يفكر فيه، بدى الخوف على البعض منهم، بينما راح الشباب يستقبلون ذلك بفرح، قالوا : ألم نقل منذ عشرات السنين بأن أزمتنا هي الامبريالية والخارطة العربية في المنطقة، انتفاضتنا لم تغيرها رغم دخولها عامها الرابع، دع الاعداء يساهمون في تغييرها، هم سيحاولون إرجاعها الى الوراء والشعوب العربية لن تقبل بالوضع، معركتنا مستمرة وسيفتح باب جديد

للنضال، دعوا الأمور تجري، حان الوقت ليستيقظ العرب، الكل مهدد ومن لم يَصحُ اليوم سيصحو غداً، الحرب لن تنحصر في الخليج، الحرب ستمتد، أربعون عاماً مرت والخارطة العربية تخوننا وترفضنا وتدفعنا إلى الوراء، دعوها تتغير، دعوها تصحو من غفوتها، التاريخ يعيد كتابة ذاته، ورق التوت سيسقط، الغربال سيكشف الحب من الزوان.

قلت في نفسي : لو كان خالد حياً لوجد مدخلاً آخر، فلربما قال: الوحوش تهاجم الإنسانية، ليس لنا سوى الدفاع عنها. الوحش كاسر، متى تستيقظ شعوب الدول الحليفة وشعوب المنطقة؟!

حتى الطبيعة تحمل في ثناياها أنوية إنفجارها، النفط والمياه ينتظران لحظة وصول أداه الحافرة فتطلق مخزونها إلى أعلى، الأرض تطلق ما في جوفها عند انفجار براكينها، تهدأ حيناً وتنفجر من جديد، وكذلك هي الحياة، تهدأ ثورة الجماهير بعد كل انفجار لتعود اكثر قوة وتصميماً، حتى بعض الحيوانات، تنام شتاءً وتنطلق حية تسعى بعدها، لكن ما العمل! اذا كانت هذه الحكومات، متخلفة الى هذه الدرجة؟! كيف نتوقع ان تكون شعوبها؟! بالتأكيد إنها اكثر تخلفاً وسيأتي اليوم الذي تعلن فيه ثورتها، فليس كافياً ان يكون هناك ظلم، يجب ان تحس به وتعيه ويجب ان تمتلك الاداة للثورة وإلا ظل الظلم واقعاً.

شربنا القهوة وأنا افكر بما كان سيقوله خالد، شعرت ببعض الألم في بطني وظهري، الألم يروح ويجيء، تقصر فتراته، دخلت الى البيت، جمعت ما لزمني من ثياب وناديت فضاء، قلت له: أخوك خالد يطرق الباب.

فرح كثيراً، بكى وقال: سأبقى في البيت لحين عودتك وسأساعدك في تربيته.

- بل من الأفضل ان تقضي هذه الليلة عند الجيران.

- أنا الذي يقرر ذلك، إذهبي أنتِ، ألستُ ابنك الكبير؟

- نعم، لكنك ما زلت صغيراً!

- لن أترك البيت، سأستمع للمذياع وسألعب مع اصحابي.

لم يكن هناك وقت لاقناعه، أوصيت الجيران به وذهبت، مر ذلك اليوم ومرت الليلة بعد ولادة خالد الصغير، رجعت في اليوم التالي فوجدت اولاد الجيران في البيت، غنوا للامطار التي هطلت تلك الليلة، غنوا لخالد، احتضنه فضاء وراح يرقص به، خفت على الطفل الصغير فوجدت نفسي أمسك به ايضاً وارقص رقصة لم اعهدها من قبل، دخل الشباب، وجدونا هكذا، اصطفوا حولنا وهم يصفقون ويرقصون، وجدتهم يحملونني ويغنون أغنيات تضم اسماءنا! نجوى وفضاء وخالد وخالد الشهيد، دخلت النسوة بثيابهن المطرزة، عملن حلقة اخرى حول الشباب، كبرت الحلقة برجال الحي، فجأة وجدت نفسي وفضاء وخالد محمولين على الأكف وثلاث حلقات تدور بنا وحولنا، فرح جديد يدخل الى البيت منذ استشهاد خالد، تجمع ابناء الحي في البيت وهم يغنون هذه المرة، غنوا أغنية شعبية فيها الفرح والتحدي والفخر والتجلي، قالوا:

الحمد لله كل زال الشر الحمد لله
زرعنا الفلفل في الحر
قال اعدانا ما بخضر
الحمد لله فرعن واحمر

زرعنا الفلفل في الدار الحمد لله
قال اعدانا ما بكبر
الحمد لله كبر وصار

زرعنا الفلفل في البر الحمد لله
قال اعدانا ما بمر
الحمد الله اخضر واحمر

زرعنا الفلفل والجوز الحمد لله
قال اعدانا ما بيجوز
الحمد لله صار مثل الموز

الحمد لله على شعر تعدانا الحمد لله
إن كان بالمال ريت المال يفدانا
وإن كان بالمال خذلك مال بغشيش
ونعيش في صحبتك فقراء دراويش
الحمد لله

رأيت العالم كبيراً، رأيت فضاء اكبر مما هو، هدأت الاغاني، هدأت الرقصات، جلسنا، شربنا شاياً وسط الاحاديث الممتعة والنكات الشيقة :

- الخيرات تأتي كلها معاً: الحسين والمطر وخالد وفرح.
- يبدو أن "الخليلي" أعاد توجيه صاروخه نحو تل أبيب.
- وإلى أين كان يوجهه قبل ذلك؟
- نحو الخليل
- لماذا؟
- لإن ثمنه غالٍ
- لا يجرؤ أحدكم المس بأهل الجنوب فلقد شاهدوا الطائرات الاسرائيلية مطلية بلون العلم العراقي تحلق فوق منطقتهم.
- عند إقامة دولتنا سننصب محطة رادار في الجنوب.
- لا تنسوا ان احد سكان الخليل هو الذي اكتشف ان الكمامات ليس لها مفعول وقائي.
- كيف؟
- استعمل الـ "دي.دي.تي" فلم تقه. ضكات تنطلق من كل جانب.
- كل اهل الخليل لديهم اكتفاء ذاتي.
- كيف؟
- يستعملون "الدبس" للتخزين في الغرف المغلقة ويستعملونه أيضاً لإلصاق البلاستيك.

- هل تعلمون سبب غضب زوجة صدام؟
- لماذا؟
- لإنه ضم الكويت ولم يضمها.
- هل تعرفون لماذا لا ينزل "الحسين" على الضفة الغربية وقطاع غزة؟
- لماذا؟
- بسبب منع التجول المفروض.
- هل تعرفون لماذا تسقط الصواريخ على تل أبيب؟
- بسبب منع التجول كما قلت.
- لا، بل أن صاروخ البترويت اوقفه وسأله: هل أنت سكود؟ قال: لا، أنا الحسين.
- إلى اين انت ذاهب؟
- إلى تل ابيت
- إذن "ساع" ورائي.
- هل سمعتم ما قاله مساعد وزير الخارجية الاسرائيلي؟
- هل تقصد العدس "وتنقيبه"؟
- نعم.
- وهل يمكن ان يكون صدام قد قالها؟!
- لا بالطبع، بل قالها المواطن الذي التقوا به.
- لا تقلقوا، إذ يبدو ان الصواريخ تعرف طريقها جيداً.
- أقبل ان نموت مقابل ان يتم قتل كل الوحوش في المنطقة.
- ومن سيقيم الدولة بعدنا؟
- لا تنسى ان اكثر من نصف الشعب الفلسطيني يعيش في الخارج، لنكن نحن الضحية بدل ان نظل نضحي طول العمر واحداً اثر واحد في الداخل والخارج.

طال الحديث، أناس يذهبون وآخرون يأتون وكأن منع التجول ليس موجوداً أصلاً، ثلاثة ايام مرت وابناء الحي قد تأقلموا مع هذه الأجواء بشكل جيد، غاب شباب الحي وجاءوا بهدية، جاءت النساء بهدية وجاء الرجال بهدية ثالثة، لم اكن اعرف بان الحي استطاع تنظيم نفسه

لهذه الدرجة، كان كل شيء منظماً فوق العادة، إلتم الجمع مرة واحدة، فتحت الهدية الأولى فكانت صورة للمرحوم خالد موضوعة في إطار مطرز بالحرير الأحمر والأبيض والأخضر بينما خط حرير أسود يصنع مثلثاً على جانبه الأيسر. وكتب تحتها: خلود، تضحية، سلام، وحدة، نهضوا وعلقوها في غرفة خالد الصغير وفضاء، الهدية الثانية كانت عصاً فلسطينية وحطة وعقالاً أحضرها الرجال، أما الهدية الثالثة فكانت ثوباً لي، ابيض اللون، فيه تطريز خفيف من الحرير الزاهي الملون والممزوج، احتج فضاء على عدم احضار هدية خاصة به، فاذا بمحمد يأتي، فوجئنا جميعاً بدخوله، تساءلنا: كيف وصل هنا في مثل هذا الوقت من منع التجول، سلم علينا جميعاً، شد على يدي، قبّل خالد، انزوى بفضاء جانباً، دخلا الى غرفة ثم خرج، ودّعنا محمد، أقسمنا ان يبقى هنا لئلا يتعرض للخطر، أوحى إلينا بأن أموره مرتبه جيداً وسينام في بيتهم، خرج فضاء بعده بنصف ساعة فاذا به يحضر نسخة من نداء جديد للقيادة الموحدة.

- الحرب مستمرة والانتفاضة مستمرة والتجدد مستمر. قلت.
- ستوزع بعض المؤسسات مؤونة للمحتاجين، سأسأل اصدقائي ونسلمهم ما يحتاجون.

جاءت الدورية ورجال يعملون في البلدية يطالبون الناس للذهاب لاستلام الكمامات، كل من يحمل بطاقة عسكرية يحصل على كمامة، تساءلت النسوة وتساءل الرجال عن اهمية استلام الكمامة بينما الأولاد بدونها، بعد اخذ ورد، قال احد الشباب، نحن لا نعتقد ان الاسحلة الكيماوية ستصيبنا وبالتالي نحن لسنا بخائفين منها، إننا نخشى فقط ان يستغل الاسرائيليون ذلك ويفعلون فعلتهم.

قبل ان يصل الرجال والنسوة إلى مقر البلدية كانت الدورية تردهم، وبدل ان يصابوا باليأس، تحولت تلك الأيام الأربعة الى فرصة للتمشي في الخارج والتمتع بالشمس التي تطل من وراء الغيوم، تحولت إلى فرصة للقاء والحديث في الشارع، وجرت التعليقات بصورة هزلية: سنستلم كمامات. وكانوا يضخمون الكاف بناء على ما سمعوه

من احد رجال البدو الذي اتصل بالاذاعة الاسرائيلية يشكو فيها انه وجد نفسه في الضفة الغربية بدون كمامة، كمامته في راهط، بينما لا يوجد هنا، عند اقاربه، خيمة محكمة الإغلاق او كمامات، شكا غنمه التي تدور في الصحراء، ويبدو ان المذيع فهمها انه يريد كمامات لغنمه، ضحكنا كثيراً ونحن نلفظ "كمامة". وكلما مر احدهم سأل الآخر إن كان قد استلم «كمامته»، وبينما نحن وسط هذا الجو المرح، قال طفل لأمه: عندما يمر الصاروخ اوقفيه، اريد ان اركبه، قالت : ابعد عني يا ولد، اذا كانت اسرائيل وامريكا لا تستطيعان ايقافه فهل استطيع انا ذلك! ضحكنا فاذا بدورية الجيش تاتي وهي تصيح علينا ان ندخل البيوت، دخل الجميع، بينما تأخر جارنا في مناداة ابنه حيث كان يلعب في الشارع، صرخ به الجندي منفعلاً: لماذا تخرج؟ الم نقل بأنه ممنوع التجول؟!

- ولكنكم قلتم بأنكم تودون توزيع الكمامات. وضحك.

إزداد الضابط غضباً، لم يدر كيف يتصرف، صرخ به: ادخل إلى بيتك، انت بالذات ليس لك كمامة.

دخل ريثما ذهبت الدورية وعندما التقينا ثانية قال: لن اتحول الى خنزير، إذا لم استلم كمامة.

* * * *

تشوقي إلى معرفة الأخبار اجبرني على مشاهدة التلفاز والاستماع إلى المذياع، ورغم السجن الذي يحاول المذيع ان يضعني فيه الا انني كنت ابحث عن اي خبر طريف، "كارميلا" اليهودية وابنتها "شيرا" تختبئان عند "وضحة" في النقب، شيرا مستمتعة بأكل المسخن وكانت تلفظها "مسخم"، واستمتعت باكل "الكرشات" وكانت تلفضها "قرشات"، إمرأة أخرى تتصل بالاذاعة وتحاول ان تنزع الخوف من قلوب الناس بينما هي لا تنام مطلقاً.

في الليل، لم اكن احتاج لمعرفة إن كانت هناك هجمة صاروخية

من خلال اعلانات المذياع والتفاز، فما ان تنطلق صفارات الانذار حتى تسمع الصافرات والصيحات تملأ الحي، يخرج الناس الى الشوارع ويبحثون عن صورة صدام في القمر، وشباب يعلنون ان الصاروخ وصل ومضادات "الباترويت" تضيء لنا موقع سقوطه.

إنه لموقف يثير السخرية والضحك وانت تشاهد التلفاز حين تسمع صفارة الانذار، تنقطع البرامج مرة واحدة، تنقطع الأخبار، يرتبك المذيع، ويبدأ صوت "نحمان شاي" باذاعة بياناته، تتخلله الاغاني واللقطات المهدئة للاعصاب، واذا ما تابعت الإذاعة فانك تحس بالخوف وبالرهبة في صوت المذيع وهو يحاول تهدئة غيره بينما صوته يتهدج، يعيد الكلمة مرتين، يحاول ان يتكلم باللغة العربية الفصيحة، لكن ذاكرته لا تسعفه فيخلط بين الكلمات العامية والفصيحة وكلمات من اللغة العبرية، يذيعون الأغاني الراقصة، ينهض فضاء ويرقص على انغامها ثم يسرع خارجاً، اشفق عليهم وهم يذيعون بعدها تصريحات رموزهم السياسية متمسكين بعدم القبول بالحل السياسي الذي طرحته المنظمة، بل ويرفضون كل مقولاتها، إنه لأمر مثير للقرف والاشمئزاز والغضب وهم يحاولون تسوية مشكلتهم مع جيرانهم على المستوى الايدلوجي، إنهم يرفضون الحل السياسي لانه لا يلبي حاجتهم الايدلوجية، واذا كان الحل السياسي ممكناً فانهم يحاولون إفشاله عبر رفع هذا الحل إلى مستوى الحل الايدلوجي، وهذا غير ممكن ابداً، فكلما برز لنا نحن الفلسطينيون والعرب فكرة "أرض الميعاد" او "ارض اسرائيل الكبرى" برز لنا في المقابل حقنا في ارضنا جميعها، واذا كانت المسألة ليست حقاً تاريخياً او غيره في هذا الوقت فهل بالامكان إيجاد تسوية يضمن شعبنا من خلالها حقه في العيش بصورة كريمة، إنه لامر مثير للقرف والضحك وهم ينقلون عبر ملاحظاتهم بعد نشرات الأخبار بأن عرفات هرب من بغداد قبل الحرب وهم أنفسهم يعرفون انه ذهب للمشاركة في جنازة أبي إياد وأبي الهول وابي محمد العمري، هكذا تحاول الإذاعة خنقنا بينما يتحول خناقهم الى مدغدغ لعواطفنا وما يجول بخاطرنا، يحاولون نبش الماضي على

طريقتهم فيجدون صداً له، كم لاحظت الأمل وحب الحياة عند شعبنا، إنه يتحمل ويعيش حياته.

التلفاز الاسرائيلي يشوه ويحوّر كل شيء، تتغير الكلمات والعبارات بحيث تصبح الجمل مكسرة ومبعثرة وصعبة التفسير، يحاولون ذلك في نشرات الأخبار وفي ترجمتهم من العبرية والانجليزية والفرنسية إلى العربية، مشروط تصبح شرموطاً، بهدوء: بدهاء، المنظمة: المظمنة، السلام: الملاس،الوحدة: الحدوة، الثورة: الروثة، مفاوضات: مضايقات، السكان: الكسان، الفلسطيني: السفل طيني، كل شيء يحاولون إيصاله بصورة معوجة ومنظمة، رغم كل ذلك فشعبنا يعرفهم على حقيقتهم، يكفيك ان تستمع لنشرة اخبار واحدة ومنذ بداية الحرب لتعرف ان العراق قد هزم، بينما تل ابيب يهجرها اكثر من نصف سكانها، هربوا إلى الجنوب فلاحقتهم الصواريخ هناك، الصواريخ تتحول إلى راعي أغنام يطردهم هناك ثم يعيدهم هنا، وأنيس منصور يحسد الاسرائيلين على هذه "النعمة: التي نزلت عليهم من السماء، يحسدهم على الملايين التي قبضوها كما لو كان يتمنى ان تسقط على شعب مصر. كل شيء يجري تشويهه وشعبنا يعرف ذلك.

بدأت مأساتنا أنا وخالد من حيث لا ندري، فبعدما استطاع خالد تشغيل احدث الآلات لصنع الادوية وبعدما أصبح أحد أهم الفنيين في استحداث أدوية جديدة ناجعة، جاعلاً مصنع الشعب قادر على تغطيه جزء اساسي من السوق في الأرض المحتلة، وبعدما اصبح خالد رئيساً للجنة العمالية، وبعدما أصبح صديقاً لكل عامل في المصنع، وكان قد تقرر ان يعقد محاضرة يوم الخامس عشر من نيسان حول الأوضاع القائمة وحقوق العمال والعلاقة التي يجب ان تسود بين اصحاب المصنع والمستخدمين، جاءه المدير الاداري يبلغه بان السيد عبد الرحمن المعبي يريده في مكتبه، اعتقد حينها بأن السيد عبد الرحمن المعبي يريد مناقشته في موضوع المحاضرة، لكنه تذكر ان هذا الموضوع قد ناقشاه من قبل، ووضح له حينها بأن أهمية هذا الموضوع تاتي من أهمية الانتفاضة في تفعيل دورنا الاقتصادي وبناء استقلالنا الذاتي، قال في نفسه: إذاً ماذا يريد مدير المصنع وصاحبه! هل يؤد التأكيد على ما اتفقنا عليه في المرة السابقة؟! لكن لم يكن هناك خلاف؟! ماذا يريد إذاً؟. ذهب إلى مكتبه، نهض المدير الإداري وفتح الباب أمام خالد ودخل هو الآخر وراءه، كان الشرر يتطاير من عيني صاحب المصنع، نهض هو الآخر من وراء مكتبه، أغلق الباب ودون ان يطلب من خالد الجلوس، امسك بورقة مكتوبة بخط اليد، اراه إياها ثم قال: هل رايت هذه الورقة من قبل؟!

دقق النظر فيها، قرأ كلماتها فاذا هي انذار موقع من القيادة الموحدة للانتفاضة: - القوات الضاربة، تقول : استناداً إلى نداء الأسير

رقم ١٣ والموزع بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٨٨ فاننا نؤكد على ضرورة مضاعفة الانتاج واستيعاب المزيد من العمال، ونحذر من خصم أيام الاضراب الشامل من رواتب العاملين او فصل المستخدمين او تقليص الأجور.

أمسك خالد بالورقة وقال: لم أرها من قبل أبداً.

- وهل تعرف الذي كتبها من عاملي المصنع؟!

- لا، لا اعرف، وانت تعرف ان هناك اتفاقاً بيننا حول هذه الأمور قبل ان يوزع النداء، اللجنة العمالية هي التي وقعت الاتفاق معكم، ولقد اخبرنا جميع العاملين ولم يبد اي اعتراض.

- لا تتكلم كثيراً، نحن نعرف من الذي كتبها، إنه أنت.

- أنا؟!

- نعم أنت وسنعلمك بطريقتنا كيف تجرؤ على مهاجمتنا، ألا تعرف من يكون صاحب المصنع؟! وماذا تكون القيادة الموحدة التي وقعت هذ الورقة باسمها؟! ألا تعرف أنني اكبر من ذلك بكثير؟!

- ماذا تقول ؟! أنا؟!

- نعم أنت.

- أقسم بالله العظيم أنني لا أعرف شيئاً عن هذه الورقة.

- لكننا نحن نعرف، كل الأدلة حتى الآن تشير إليك أنت.

- وما هي الأدلة؟!

- انت تأتي في العادة مبكراً لتشغيل الآلات وقبل مجيء العمال؟!

- صحيح.

- بالأمس، بعد العصر، جاءك ضيوف الساعة الرابعة مساءً.

- صحيح، وماذا يكون في ذلك؟!

- إنهم يدّعون أنهم ينتمون للقوى الضاربة والقيادة الموحدة.

- أنا لا أعرف ذلك.

- الحارس وجد هذه الورقة بعد دخولك المصنع وقبل مجيء العمال إليه.

- وما ذنبي أنا؟ من الممكن ان الحارس لم يشاهد الذي ألقاها ولم يجد

غيري لإنه يتحمل هو الآخر مسؤولية إذا كان من القاها متهماً من وجهة نظرك.

- استمع جيداً لما سأقوله: من الأفضل لك ان تعترف بكتابة الورقة والقائها عند باب المصنع، وسنحاصر المشكلة بالاجراءات الداخلية او أن تقدم استقالتك وستحصل على حقوقك.

استشاط خالد غضباً وقال له: اسمع يا سيد عبد الرحمن، انا لم أفعل ذلك حقاً، أنا ذاهب إلى العمل واتخذ انت من الاجراءات ما شئت.

- لا، لم نتفق على ذلك، لتعرف يا خالد أنك تعمل في مصنع محترم، له مكانته وسمعته بين الشعب وقيادته، سنبلغك بكتاب موقع باسمي شخصياً ورسمياً أنك مجاز لفترة شهر، اذهب إلى بيتك، فكر جيداً، راجع نفسك، وحين تقرر ان تعترف تعال وسنتخذ الاجراءات المناسبة.

- لماذا لا تتخذ اجراءتك الآن اذا كنت متأكداً.

- نريد ان تكون كل الامور واضحة لنا ولك وحسب القانون.

وقبل ان يخرج من مكتب المدير، التفت إليه وقال: اسمع يا سيد عبد الرحمن، سأثبت لك خلال هذا الشهر براءتي، اعطني نسخة من هذا الإنذار.

- لا، اذهب وافعل ما تراه، هذه قضية ضدك.

- لكني سأثبت في النهاية وبالاسترشاد إلى محام أنني بريء.

هكذا استطاع عبد الرحمن المعبي ان يجر خالداً لنفس الموقع الذي اراده او ربما خطط له، جاءني وعيناه حمراوان، ووجهه احمر، وأذناه حمراوان كمن على وشك ان تقطران دماً، اخبرني بالقصة، فوجئت بما سمعته، صحت: وكيف يجرؤ واحد مثل هذا على وضعك او وضع القيادة الموحدة في قفص الاتهام؟

- هذا ما حدث يا نجوى. قالها وهو يشعر بالأسى والمرارة والحزن.

- ولماذا لا تبصق في وجهه؟

- كدت أفعلها، لكني ادركت في لحظة ما إنه يستطيع ان يفعل ما يقوله.

- الهذا السبب وافقت على إجازة إجبارية لمدة شهر؟!

- نعم.

- وتريد يا خالد ان تبثت براءتك أمام عبد الرحمن المعبي؟!

- هذا ما طلبه مني.

- الله اكبر يا خالد، الله اكبر يا ناس، خالد سيثبت براءته امام المعبي! عبد الرحمن المعبي وصل، عبد الرحمن المعبي أكبر من الشعب وقيادته، الهذا السبب يناضل الناس! ما الذي تغير في الانتفاضة إذا بقي عبد الرحمن في نفس مركزه ومكانته.

تطلعت إلى خالد، دققت النظر فيه، فاذا به يتطلع نحوي كالطفل الذي يخنع لصرخات والديه ويريد سماع المزيد ويريد ان لا يسمع المزيد ايضاً، صار إنساناً غير الذي اعرفه من قبل، سألته بلهجة اقل حدة: وماذا ستفعل يا خالد؟!

- سأخبر أصدقائي.

مرت الساعات ثقيلة في البيت، إبتعدت عنه وأنا افكر في الأمر بينما هو مستلق على المقعد دون حراك، عيناه تتجهان نحو الأرض ويداه تعصران وجهه، عند العصر جاء اصدقاؤه، جاءوا فأخبرهم، بان عليهم الغضب وقالوا: لماذا لا تخبره انك انت الذي كتبته وانك لست خائفاً منه.

- لكني لم اكتب شيئاً، وهو يعتبر نفسه اكبر من القيادة الموحدة للانتفاضة.

- نحن اذاً سنذهب لنخبره ان يغلق هذا الملف نهائياً وإلا....

- لا أظنكم تستطيعون، يبدو انه لا يريدني في مصنعه وهذا كل شيء.

- ولكن الذي خط كلمات هذه الورقة ليس مذنباً.

- افعلوا ما تستطيعونه.

لم يعد منذ ذلك اليوم قادراً على مغادرة البيت او المكوث فيه، اغلقت ابواب المصنع في وجهه وهو يخشى ان ينتشر الخبر، ومن يضمن ان صاحب المصنع لن يخبر آخرين والآخرون يخبرون آخرين والمدير الاداري! والمحاسب! والعمال! ماذا سيقول كل هؤلاء؟!

عاد الاصدقاء في اليوم التالي وأخبروه بأن لجنة من وجهاء المدينة ستذهب لمقابلتة، أصيب بالامتعاض، لقد هدد هؤلاء الأصدقاء بأنهم سيذهبون إلى عبد الرحمن المعبي ويبلغونه رسالة مضمونها أن يخرس، ولكن ما حدث كان عكس ذلك، إن صاحب المصنع يتهمهم أيضاً، فماذا حدث؟ هيأنا أنفسنا، على مضض، في انتظار نتيجة مقابلة اللجنة معه، عرف أهالي الحي بأن هناك مشكلة مع خالد في مصنع الشعب، جاءوا لزيارتنا ليلاً، لم يجد خالد مهرباً من إخبارهم مع التأكيد لهم بان ليس له علاقة مطلقاً بهذه الورقة، غضبوا وأخبرونا بأن لجنة الحي ستذهب في اليوم التالي لمقابلة عبد الرحمن المعبي.

لم نخبر احداً في المدينة إلا وتعاطف معنا ووصف عبد الرحمن بانه يسرق الأموال التي تأتي لدعم اللجان الشعبية والانتفاضة، وراحوا يعددون الأرباح التي جناها في الأشهر الاولى للانتفاضة، فالأدوية الاسرائيلية قوطعت، وازداد العمل، والطلب على الادوية العربية إزداد أيضاً، عبد الرحمن يشرع الآن في بناء فيلته الجديدة، وهو من الشخصيات التي يطلب منها الحاكم العسكري الاجتماع به حين يُعلن عن لقاء مع شخصيات رام الله والمناطق. بقينا بلا حول ولا قوة ونحن نستقبل ضيوفنا يعربون لنا عن تضامنهم معنا، مر نهار ذلك اليوم وخالد وفضاء في البيت، المدارس مغلقة، جمع فضاء الاطفال من جيله وتعلموا معاً باشراف خالد، أخبرني خالد بعدها بأنه يشعر ولأول مرة بأنه لا يستطيع إفادتهم بعد اليوم، فتفكيره كله معلق بمشلكة المصنع وعبد الرحمن المعبي، قمت انا في نفس الوقت واخبرت اللجنة النسوية العليا بما حدث، حاولت رغم ضيقي ان اخفف على خالد بقدر استطاعتي، فبعد رجوعي من العمل، تناولنا الغداء معاً، ناقشته في مهام الانتفاضة والعصيان الوطني المطروح، صمت طويلاً وهو يستمع إليّ ثم قال : يبدو ان الانتفاضة يقوم بها الصغار ويقطف ثمارها الكبار، سأفكر معك ومع الأصدقاء وأبناء الحي واللجنة النسوية كما تريدين، لكنني أشعر بأن مشكلتي تمنعني من التفكير في اي شيء، وإذا لم تحل مشكلتي فانني لا اثق بأن تغييراً عميقاً حدث في صفوف

الشعب الفلسطيني.

- هل تعلم يا خالد بأن كل أبناء رام الله يعرفون بمشكلتنا مع عبد الرحمن؟

- ما دام الأمر كذلك فلتذهب حياتي إلى الجحيم، ليودعوني السجن، لكني أريد حقي كاملاً من عبد الرحمن المعبي.

انتظرنا حتى المساء، توافد الضيوف مرة واحدة، وجاء أناس لا اعرفهم، كل وفد كان حذراً من الوفود الأخرى، لم يستطع خالد مجالستهم في نفس الوقت، وبينما أجبرت على الجلوس مع أهالي الحي لأعرب عن تقديرنا لنضالهم، كان وفد يصحب خالداً الى غرفة داخلية، يكلمونه ويسألونه أسئلة جديدة حول وضع المصنع وحول ان كانت هناك خلافات شخصية مع الادارة او مع العاملين، تكررت خلواته الجانبية مع الوفود، لم استطع تحمل ما يحدث، تحول كل شخص الى محقق وذي مركز مهم، حاول كلهم ايهامنا بانهم ذوو مراكز مهمة، كل وفد ينتظر في الصالة لحين انتهاء خلوة خالد مع وفد آخر، وبينما الوفود الجالسة في الصالة يتحدثون مع بعضهم في مواضيع أخرى ليست لها علاقة بموضوعنا كأنهم يتحدثون فقط لإشغال وقتهم او كجزء من مجاملة لا بد منها، سمعتهم يتحدثون عن الاعتقالات المتتالية وحملوا بعضهم بعضاً سبب ما حدث، سمعتهم يتحدثون عن الداخل والخارج فهناك من رأى في الخارج خطراً على الانتفاضة، وهناك من رأى في إثارة موضوع الداخل بهذه الصورة خطراً على المنظمة، هناك من رأى في العصيان الوطني تضييقاً على سلطات الاحتلال وهناك من رأى فيه تضييقاً على الانتفاضة، احاديث تطول وتتشعب يكسوها نوع من التوتر والتحدي وتهميش عمل الغير، حتى طريقة توزيع النداءات يختلف عليها وتصبح قضية القضايا، لون الورق هو الآخر قضية، شكل الطباعة ومناطق التوزيع وعدد النداءات في كل منطقة، توقيت التوزيع وغير ذلك من القضايا الفنية والصغيرة، كل ذلك وغيره غيّب اهمية الانتفاضة وتطويرها وتفعيلها، القضايا الصغيرة تثير الخلاف ليعلو صوتها على صوت الانتفاضة، شعرت بالضياع وبالاشفاق

وبالغضب مما أسمعه، تسارعت أنفاسي، توترت أعصابي، اهتزت يداي، إشرأب عنقي، وجدت نفسي وبعدما أطال وفد في الحديث مع خالد، وجدت نفسي أصرخ: اسمعوا: لا نريد مزايدات، الامور صارت واضحة بالنسبة لنا ولكم، لماذا يتكلم كل وفد وكأن الوفود الأخرى لا تعرف شيئاً، كلكم تعرفون ما حدث، أمامكم سؤال يجب الإجابة عليه بصورة واضحة: هل تستيطعون معرفة قدراتكم وقوتكم في لجم خطوة عبد الرحمن المعبي وإعادة خالد إلى العمل ام لا؟!

طلعت الاصوات متعددة ومن كل جانب:

- وهل تشكين في قدراتنا؟!

- الا تعليمن بأننا نحن الذين نهضنا بالشعب الفلسطيني بانتفاضته؟!

- إننا نواجه أعتى قوة في الشرق الأوسط ونحن قادرون على مواجهة من هم أصغر من ذلك.

- يجب ان نوقف امثال عبد الرحمن عند حده.

- يجب فضحه في البيانات والنداءات.

- هذا الدور يقع على نقابات العمال.

- لكن يجب ان تعلموا بأن عبد الرحمن ليس خارج الصف الوطني.

- عبد الرحمن يقدم خدمة جليلة للانتفاضة وستأتي الأيام لكشفها

- هذا مجرد برجوازي حقير يستغل العمل الوطني ويركب امواجه.

- هذه ليست معركة طبقية، إننا نواجه الاحتلال بكل قوانا، كل منا له دور في المعركة.

- لكن ذلك لا يحدث على حساب الآخرين والشرفاء.

- إن الإجراء الذي اتخذه عبد الرحمن بحق خالد هو إجراء ضد الانتفاضة وقيادتها، خالد هو الضحية وهناك ضحايا كثيرون لا نعرفهم.

- أريد ان توضحوا لي الفرق بين سجن المناضلين وطرد عبد الرحمن لخالد من المصنع!

- هناك فرق، هذه معركة داخلية وتلك معركة مع العدو.

- من هو عدونا؟!

علت الأصوات، ضج البيت بالأسئلة والإجابات المتداخلة، خرجت بعض الوفود وبقيت وفود اخرى على استحياء، ساد صمت في البيت، انزوى كل واحد في مقعده ووجه خالد يحمر ويصفر، ذهب إلى المطبخ وشرب حبتين من الاسبرين، خرج الجميع وبقينا وحدنا، وكان فضاء قد آوى إلى النوم. سألت خالد عن ما حدث، عدّل من جلسته ومحاولاً منع دمعة تكاد تقفز من عينيه وقال: والله يا نجوى لا أعرف ماذا يحدث! كل شيء غريب، هذا الوفد يسألني عن ما قامت به الوفود الأخرى، والآخرون يفعلون نفس الشيء، يسألونني عن الانتماءات السياسية للعمال ولأية نقابة يتبعون، وإن كنت قادراً على خدمتهم في تنسيب العمال لنقاباتهم إذا أرجعوني الى العمل بدون شروط، كل منهم هدد وتوعد صاحب المصنع، حاولوا ان يقنعوني بانها مشكلة بسيطة يسهل حلها، لكن اسئلتهم تثيرني، إنني الآن وبصراحة غير قادر على تحديد رأسي من رجلي.

- وما دور النقابات؟

- رفض عبد الرحمن الاجتماع بها، اخبرهم بانه لا يستطيع الاجتماع مع كل نقابة على حدة، وهم الآن غير قادرين على تشكيل لجنة عمالية موحدة.

- وماذا عن لجنة الحي؟!

- أخبرها بأنه لا يتعامل مع لجان كهذه، فهي لجنة غير رسمية وغير قادرة على معالجة موضوع كهذا، لكن ماذا عن اللجنة النسوية؟

- لا زالت المشاورات بينها جارية، لكن عبد الرحمن أخبرها بانه على استعداد للاجتماع مع لجنة المصالحة العامة وبالتالي فان المحاولات الأخرى في طريقها إلى الفشل كما يبدو.

- أتعرفين من هم أعضاء لجنة المصالحة العامة يا نجوى؟!

- نعم، إنهم وجهاء مدينة رام الله.

- هل تعلمين ان عبد الرحمن المعبي يكون عضواً فيها لحل مشاكل اخرى!

- أعرف.

- هل تعتقدين بأن اصدقاءه هؤلاء سيعيدونني إلى المصنع؟!

- لا اعتقد.

- وما العمل؟!

وجدت نفسي اقع في الشرك الذي وضعه لنا عبدالرحمن المعبي وقلت: إذا كان كل هؤلاء: أطرافاً ولجاناً ونقابات ومؤسسات غير قادرين على تسوية المشلكة مع عبد الرحمن فانني افكر في ان يعلن الطرف الذي ارسل الانذار عن تبنيه، حتى لو اضطر الشخص الذي كتبه ان ياتي الى المصنع ويفصح عن ذلك أمام "المعبي".

- ماذا تقولين! هل تريدين ان نكون عاملاً مساعداً في كشف الذي كتبها؟! هل نحن متأكدون بأن المخابرات الإسرائيلية ليست على معرفة بما يحدث؟!

- ان من أرسل الانذار يجب ان يكون إنساناً مسؤولاً، ويجب ان يكون مسؤولاً في متابعة تنفيذ قرارات القيادة الموحدة.

- انا حائر يا نجوى، اريد حلاً، إنهم يلقون بي ودون ان اخطط، الى السجن وربما إلى الابعاد، المسألة لم تعد فقط قطع مصدر رزقي، إنها اكثر من ذلك، الانتفاضة تسير في اتجاه فيبعدونني في إتجاه الشك في معظم الشعارات.

- وهل اخبرت الوفود بما تفكر فيه؟

- نعم.

- ماذا كان ردّهم؟

- لم يعترف أحد منهم بأنه هو المسؤول، وهم متخوفون من ان يكون توزيع بيان من تلك الجهة احدى السبل لوصول المخابرات لهم.

مضت ساعات الليل ونحن نحاول الإجابة على عشرات الأسئلة التي برزت، شعرت بالتعب والإرهاق، ذهبنا للنوم، كنت أنام واصحو لأجد خالداً مازال يتقلب في فراشه.

ذهب خالد بصحبة فضاء إلى المصنع، استقبله عبد الرحمن قبل دخوله وقال له: ممنوع دخولك إلى المصنع، لا تعمل على تصعيد المشكلة، كل هؤلاء الذين اتصلت بهم لا ينفعونك، إبق في بيتك ونحن

نطلبك.

عاد إلى البيت، وجد خالد نفسه في ضيق منه، لم يذهب في ذلك اليوم إلى مركز رام الله لمتابعة المظاهرات، أمسك بيد فضاء وطلعا إلى الجبل، حدّث فضاء عن كل ما يراه: هذه خبيزيه، هذه "هندبة"، هذا "خرفيش"، هذا "جلثون"، هذه "سيسعية" وهذا خس بري، وهذه....، وهذا....

وجدا سلحفاة تتمشى بين العشب الأخضر، امسكا بها، داعباها، قطع فضاء بعض العشب والقاه امامها كي تأكل، لكن السلحفاة رفضت إخراج رأسها وأطرافها لحين الابتعاد عنها، سأل فضاء أباه: يبدو أن هذه السلحفاة تخجل من الناس.

- لا يا فضاء، إنها تخافهم.
- ولماذا تخافنا؟! إننا نحاول إطعامها.
- هي تفهم ما نفعله بها بشكل آخر، إنها تخاف.
- وهل هناك علاقة بين خوفها او خجلها وبطء حركتها.
- أكيد.
- كيف؟!
- لا اعرف.
- هل هناك شيء يخيفنا نحن؟
- نعم.
- ولكننا لسنا بطيئي الحركة!
- بل نحن كذلك.
- أتقصد باننا بطيئون بالنسبة للسيارات والطائرات؟! أم بالنسبة لما نراه في الرسوم؟!
- هناك من هم اكثر سرعة من السيارات والطائرات ومن كل الاشياء التي تراها.
- مثل؟
- الذين صنعوها.
- وهل يسبقونها؟

- يسبقونها في خلق المكائد.

وبينما جلس خالد على صخرة يراقب الشجر والاعشاب، إنهالت اسئلة فضاء التي لا تنتهي، أجابه عن بعضها بينما ظل بعضها غامضاً لفضاء وبعضها غامضاً ايضاً لخالد، لاحظ فضاء ان عيون خالد تذرف دموعاً، سأله عن السبب، فقال وهو يحتضنه: ألا ترى يا فضاء كم هي جميلة هذه الطبيعة!

- نعم، وماذا يبكيك يا أبي؟!
- هناك من يحاول منعنا من الاستمتاع بها.
- اتقصد الجنود!
- نعم الجنود، وهناك غيرهم ايضاً.
- من غيرهم؟ يجب ان نرجمهم ايضاً بالحجارة.
- هناك من يحاول ان يجعلنا مثل هذه السلحفاة، وكما حاولت انت ان تطعمها العشب الذي تريد ورفضته يحاولون اطعامنا ما يريدون وبالطريقة التي يريدون، عندما كنا صغاراً كنا نختبيء مثل السلحفاة عندما نرى اساتذتنا، وكنا نختبيء أيضاً مثل هذه السلحفاة من الكبار، وها أنا قد تجاوزت الثلاثين ويحاولون أن يبقونا مثل هذه السلحفاة.
- لكن أمي، كانت قد قرأت لي قصة السلحفاة والأرنب وقد تغلبت عليه في السباق.
- هذا صحيح، أتعرف السبب! لإن السلحفاة سلكت طريقاً غير طريق الأرنب، ولا تنسى ان الأرنب يكون مثل السلحفاة بجانب غيره من الحيوانات.
- وما العمل؟
- لا أدري.

كان فضاء يضيق باجابات "لا ادري"، فضاء يعتقد ان أباه قادر على معرفة كل شيء، إذ كان يراه دائماً يتحدث لاصدقائه ويجيب على كل تساؤلاتهم، فلماذا "لا يدري"؟!

لم يأت في ذلك اليوم الى البيت اي من الوفود او اللجان، واتى بدل

ذلك حارس المصنع يحمل تبليغاً لخالد لمقابلة المدير في اليوم التالي، مرت تلك الليلة دقيقة بدقيقة، راحت وجاءت، وطارت بنا الاستنتاجات وحطت، فمن المؤكد ان عبد الرحمن يحمل قراراً مهماً يريد إبلاغه لخالد، وإلا لما أرسل في طلبه، هل توصل لاستنتاج بأن لا علاقة لخالد بالانذار؟! هل احتج عمال المصنع على منعي من دخول المصنع وقاموا بتحرك ما؟! هل جاءه الذي كتب الانذار واخبر المعبي بأن خالد بريء؟! هل ذهبت الوفود مجتمعة الى المصنع وحذرت صاحبه من اللعب بالنار؟! هل اكتشف "المعبي" بأن خطوته هذه تضر بي شخصياً وتعرضني لمخاطر أمنية؟! هل أدرك "المعبي" بأن يضع المسألة الوطنية في مواجهة معه؟! هل يتراجع "المعبي" مقابل حلول عشائرية ووعود أخلاقية مع فنحان من القهوة؟! هل..؟!، هل....؟!، هل....؟! الافكار كثيرة، ازداد معها توترنا، وشدت فيها اعصابنا، وجفت حلوقنا، وارتجت أيادينا، جافانا النوم، وكسانا السأم، عقارب الساعة انتقلت من رقم إلى رقم، انتصب محملقاً نحو السقف ثم بدا يهبط رويداً رويداً ونحن لا نجد أجوبة محددة على تلك الاسئلة، فالاجابة عليها تعني تقرير مصير عمل خالد، ويبدو ان القرار ليس بأيدينا، مصيرنا صار في يد عبد الرحمن المعبي، فهو الآمر الناهي في المصنع، هو من يقطع الارزاق، ولا ندري ان كان يقطع الاعناق ايضاً، نهضنا مبكرين، ذهبت الى العمل مصطحبة فضاء معي.

فوجيء خالد بوجود لجنة المصالحة هناك، تكلم احدهم بعد ان طلب من خالد الجلوس وقال : من ملاحظاتنا الأولية ومن خلال معرفتنا البسيطة بالخطوط فاننا نعتقد بان الخط الذي كتب به الانذار يشبه الى حد بعيد خطك، وبالتالي فانك انت المتهم، نريدك ان تعترف بانك صاحب الورقة، تعتذر للمدير امام كل العاملين وتتعهد بأنك لن تفعل ذلك ثانية وحينها ستعود الى العمل.

- ولكنني لست أنا الذي كتبته، أقسم على ذلك. قال خالد.

- تعال يا ابني، لا نريدك ان تقسم على شيء، هذا ملفك الذي فيه خطك وهذه هي الورقة، انظر الى البسملة هنا وهناك، ألا تتشابهان؟!

تفحص الورقة وقال: نعم، إنها تشبهها، إنها مثلها بالضبط، لكن، أقسم...

- قلت لا تقسم، انظر الى حرف الطاء والراء والدال، أليست من خط يدك! قارنها مع ما كتبته.

- أقسم....

- لا تقسم، نحن نتعامل مع حقائق، هذه هي الحقائق التي أمامنا، هل هناك حقائق اخرى عندك!

- أنا على استعداد لإحضار خبير خطوط، وانتم احضروا خبيراً اخر، ولندعهما يكشفان ذلك.

- وإذا أثبتنا بان الخط خطك ماذا ستفعل؟!

- سأفعل كل ما تطلبونه، سأستقيل، سأتنازل عن كل حقوقي، سأرحل من هذه البلدة، سا...

- ليس هذا الوقت لتقدير ما ستفعله.

تدخل صاحب المصنع وقال: لي شرط واحد لإحضار خبير خطوط.

- وما هو؟ سأل.

- أن يدفع خالد التكاليف.

- سأدفع في حالة واحدة فقط، وهي ان يثبت بان الخط كان من يدي.

- اتفقنا.

رجع خالد فرحاً للاتفاق، فهو متأكد بانه سيكون بريئاً، سألته: وهل تعتقد ان خبراء الخطوط سيثبتون براءتك؟

نظر نحوي بنوع من التحفز والحزن معاً وقال: هل تشكين في صدقي يا نجوى؟!

ارتددت الى داخلي، احسست أنني اهنته، اقتربت منه وجلست بجانبه، حضنته وطبعت قبلتين على شفتيه، تنهد من أعماقه، نظر نحوي وقال: أنت تشفقين على حالتي يا نجوى، أليس كذلك؟!

- لا يا حبيبي، قضيتي قضيتك، إنها تمسني بالضبط كما تمسك، لا تنسى علاقتنا منذ سنوات، فضاء ابننا، إنني افكر في ان نرزق بمولود آخر.

انزلقت دمعة من عينه وقال: لا احب، يا نجوى ان اكون موضع شفقة من احد، انني اعرف نفسي جيداً، كل الوفود التي جاءت احسست باشفاقهم علي، لا ادري لماذا، انني على حق يا نجوى، أنا متأكد من ذلك كما اراك واحس بوجودك الان، تصوري يا نجوى انني الآن متهم من عبد الرحمن المعبي ومن اللجنة العامة للمصالحة ومن زملائي، لقد كانوا يهربون من نظراتي، لم يزرني أحد منهم لاظهار تضامنه معي، لقد تكلم كل الوفود وحتى القيادة الموحدة عبر نداءاتها عن الروح الجماعية وتناسوا ما يحدث على ارض الواقع، تصوري ان هناك اربع لجان شعبية في حينا، اللجنة النسوية مكونة من اربعة اطراف، النقابات، والاعلام، لماذا الرقم اربعة، لماذا ليس ثلاثة، فالقدر كما يقول جدي يجلس على ثلاث، لماذا ليست عشر، ثلاثة عشر، إن الواقع غير ذلك يا نجوى، عائلات كثيرة في المجتمع الغربي يكتفون بمولود واحد لتصبح العائلة ثلاثة، هناك العالم الأول والثاني والثالث، رقم ثلاثة يتردد في كل مكان في العالم وفي كل المناسبات، رغم ذلك فأنا اكره هذا الرقم مع انني لا استطيع الخروج منه، انني افكر مثلك في ان نرزق بطفل آخر، لكن ذلك يعني باننا سنصبح أربعة والذي بدأت اشك في حقيقته، انني اكره التعامل بالأرقام يا نجوى، كل شيء يحيرني، أريد كل شيء ان يتحول إلى عالم واسع، أريده أوسع من كل الارقام يا نجوى، أحب الطبيعة يا نجوى، أحب السماء يا نجوى، احب الفضاء، أتذكرين!

- أذكر كل شيء، أتفهم كل شيء، دعنا نشرب فنجاناً من القهوة.

- لا، سأقوم بعمل كأس "خلطة" هذه المرة، لكن أود أن أسألك!

- ماذا؟ قل ما تريد.

- كيف ستحسين إذا ما طردوني من العمل وبقيت أنت وحدك المسؤولة عن البيت؟

- كما أحس الآن، كما احسست قبل ان تبرز لنا هذه المشكلة.

- أيعني هذا بأنك لن تشفقين علي؟

- لماذا تحاول يا خالد ان تضعني في موقع أنا لست فيه، إنني زوجتك،

إنني شريكة حياتك، ابعد تفكيرك عن كل هذا.

* * * *

جاءنا نبأ اعتقال اصدقائه، شعر خالد بالوحدة كما لم يشعر بها من قبل، حزن كثيراً وخشي ان يعتقلوه هو الآخر، جاء نبأ اعتقالهم وفي وضح النهار مفاجئاً، أعلنت الإذاعة والتلفاز الاسرائيليين النبأ نوع من الفخر والاعتزاز، اعتقلوهم مع آخرين في بيت في رام الله أثناء اجتماعهم لصياغة النداء الجديد، وفي محاولة لاحباط الناس وزعت السلطات نداءً مزوراً، لكن، وفي اليوم التالي كان النداء الحقيقي يوزع على باب كل بيت.

احتار خالد في من سيساعده في البحث عن خبير في الخطوط، فاصدقاؤه يعرفون اكثر منه، سأل من يعرفهم فأخبروه بأن معظم خبراء الخطوط مرتبطون بالدوائر الرسمية في المحاكم، خشي هذه الارتباطات لما سيؤثر على معرفة السلطات بقضيته.

حاولت منعه من طرق هذا الباب، فهو صاحب حق وطني ونقابي، حاولت ان نسلك طريقاً آخر يجبر "المعبي" على الرضوخ حتى لو كان باسلوب التهديد والتصدي، لكنه ذكرني بالتقاء الوفود في البيت وما اسفرت عنه أحاديثهم، وأكد باننا ملزمون بمواجهة المعركة المحددة التي امامنا. وتوصل إلى ان الذي اختار فتح المعركة وحدد أدواتها واساليبها هو عبد الرحمن المعبي وإننا لا نستطيع سوى استعمال نفس الأسلحة. وجدت نفسي متناقضة الى ابعد الحدود، وجدت نفسي اختار طريقاً لم اطمح يوماً الى اختياره، وجدت نفسي في موقع لا احسد عليه، فحتى صياغة ورقة من هذا النوع اصبحت تهمة ونحن نعيش الانتفاضة بكل الابعاد التي تنص عليها النداءات المتتالية، وجدت ان هناك تناقضاً بين ما يكتب في الاوراق ويذاع في الإذاعات وبين ما يجري فعلاً على الأرض، فكرت ان اذهب فوراً الى بيت عبد الرحمن او الى اي مكان اجده فيه والطمه بالحذاء، فكرت ان انتقم فوراً

وقبل ان نغوص في وحل لم نره بعد، فكرت ان استيعن بعلاقات عشائرية في غياب اصحاب البيانات لكني وجدتها فكرة سخيفة هي الأخرى، درت على أكثر من باب لمواجهة هذا الظالم والمتعجرف، دارت الافكار وارتدت ودون تخطيط إلى خيار خالد، وجدت نفسي أوافق على خياره، مجبرة على قبوله، كنت خجولة حتى في مشاركته في التفكير وتنفيذ هذا الخيار، أنا نفسي التي ضحكت وخالد على "مصنع الشعب" وعلى عبد الرحمن المعبي في اليوم الأول الذي فيه تعارفنا، أجد نفسي موافقة على خيار القانون والإطار الذي أراده عبد الرحمن.

فكر ان يكتب صفحة بخط يده ويصور للخبير بعض الكلمات من الإنذار حتى لا تكشف قضيته، لكنه وجد ان ذلك سخيف خاصة إذا طلب الخبير إحضار المتهم، اتصلنا باحد خبراء الخطوط في نابلس فأخبرنا انه قادم إلى رام الله في اليوم التالي، اتفقنا ان نلتقي قرب مصنع ادوية الشعب فقال بانه سيكون في زيارة للمصنع في ذلك اليوم.

علمنا ان اللجنة العامة قد طلبته هو وبالتالي لا يمكننا الاعتماد عليه في هذا الوقت، جاءنا حارس المصنع وابلغنا بضرورة حضوره في اليوم التالي.

قضى خالد ليلته مرتبكاً، يمسك بورقة وقلم ويحاول كتابه شيء بلا فائدة، وجد نفسه يرسم، رسم بيتاً يشبه البيت الذي نسكنه، ترك واجهة البيت بدون نوافذ وبباب محطم وأبقى على شجرة الصبار أمامه، رسم مصنع الادوية بنوافذه الواسعة والعريضة، رسم الشجر الذي يلفه، لكنه رسم السور بدون بوابة، كان وجه عريض، اصلع الرأس، يضع نظارات على عينيه ويطل من احدى النوافذ، مفتوح الفم وملق بلسانه خارجه، ورسم بجانبه الجبل بزيتونه وصنوبره وصخره وترابه، ثم ما لبث ان بدأ برسم خطوط عرضية وطولية، امسك الورقة بيمناه، قرّبها من وجهه وأبعدها، أزاحها نحو اليمين ونحواليسار، نهض من مكانه، وقف قبالة النافذة تطلع من خلالها نحو المصنع، ثم دقق في الورقة ثانية، جالت نظراته في انحاء البيت وكأنه يبحث عن شيءٍ ضائع، أعاد نظراته الىالورقة، رأيت يده تهتز، ثم انهال عليها تمزيقاً والقاها في

سلة القمامة، دقق في ذاك الركن، انحنى والتقط لعبة لفضاء، كانت شجرة زيتون مصنوعة من البلاستيك، حملها وعاد وجلس على مقعده، حاولت ان لا اشعره بوجودي، وددت ان ينهي حالة ارتباكه بنفسه، رغبت ان لا افسد عليه كيفيية التعبير عن نفسه، لكني وجدت نفسي أسأله في محاولة لاستعادة حالة اتزانه: هل تستمتع بتعذيب نفسسك يا خالد؟ فقال: لا يا نجوى، انني احاول ان اتخلص من العذاب الذي يلحقه بي ذاك الوغد، لم ارغب يوماً بأن اعيش هذه الحالة، تصوري يا نجوى بانني اعيش الآن لحظات ما قبل الامتحان، لم أحس بمثل هذا الشعور حتى في أثناء الدراسة المدرسية والجامعية، أخشى ان يكون في الأمر مكيدة.

- لكنك متأكد بانك لم تكتب الورقة.
- صحيح، لكن هناك بعض الكلمات تشبه خطي، هل يمكن ان يكون هناك شخص حاول تقليد خطي؟!
- لكن خبراء الخطوط يكشفون ذلك.
- أنا حائر يا نجوى، أقسم....
- أنا اصدقك دون ان تقول شيئاً.

* * * *

- اكتب.

كتب.

- أعد كتابة الجملة التالية.

أعاد

- اكتب بسرعة، اكتب ببطء، اكتب بهذا القلم،...

كتب أكثر من صفحتين، جاء منهكاً بالفعل، لم الحظ علامات الفرح في عينيه، ازداد ارتباكاً، شعرت به مثل فضاء، يغيب عني لحظات ويرجع ليسألني نفس الأسئلة، اسئلة بسيطة كان يطرحها وهو يعرف إجابتها أو سمعها مني من قبل لكنه ود التأكد منها، طرح أسئلة

تتعلق بالبيت ومحتوياته وتعاملنا فيه: أين وضعت كتاب العلاج النفسي؟ أين بيجامتي؟ ما أخبار جيراننا؟ كم من السكر تحتاجين في فنجان الشاي؟ كم عمر فضاء الآن؟ كم سيكون عمرنا حين يبلغ العشرين؟...

لم اشأ مضايقته، أجبت على كل تلك الأسئلة مفترضاً انه لا يعرفها، فجأة وجدته يصرخ في وجهي : هل تعتقدين أنني أهبل او فقدت عقلي؟! لماذا تعامليننني كطفل؟!

- ماذا تقول يا خالد؟! أنت زوجي، أنت حبيبي.

- لا تقولي حبيبي، انني اشك في كل شيء.

القيت ما بيدي جانباً واسرعت نحوه أحضنه، حاول منعي، لكني استطعت الإمساك به، ربتُ على ظهره، مَسَدت له شعره، قبلته في اكثر من مكان، فاذا به يبكي، بكى بحزن شديد لم أعهده من قبل، القى برأسه في حضني وبكى، أحسست بدموعه تنسكب على جسدي، وجدت نفسي أبكي رغم محاولتي حبس دموعي، احس بانني ابكي انا الأخرى، نهض مرة واحدة، قبلني، قبلته، ورحنا نتطهر بنشوة عروسين في ليلة زفافهما، شعرت به كأنني أراه لأول مرة، وأحتضنه لأول مرة، شعرت ان احزانه تسقط مرة واحدة، قال : أريه ان ارقص.

- نرقص معاً.

احضر شريط تسجيل ورقص على أغنية لسعدون جابر: "هلك وين يا نجوى"، رقصت معه، أمسكت بيده ورقصت، كنت أنظر إلى عينيه السوداوين وهو ينظر نحو خصري وأنا أهزه، رقص، دبك، كل جسده، كان يتحرك، يده وراء ظهره والأخرى إلى أعلى وأنا أدور حوله وهو يدور حولي، صار يرقص بعنف، رأيته يحاول انهاك جسده، يبتسم وهو يقول: ارقصي معي. انهكت، رأيته يحاول قتل نفسه تعباً، حضنته وأنا أرقص معه، ألقيت برأسي على كتفه حتى يُهدىء من رقصته، ووجدنا أنفسنا نعود للجلوس معاً، قال: أريد انا انام. ونمنا.

لم يكن من السهولة علي التعرف على حقيقة ما جرى، رجعت إلى البيت ظهراً فوجدت خالد مستلقياً في الفراش وكأنه أفاق من موجة

البكاء التي اجتاحت مشاعره وتحولت إلى غضب، جلست بجانبه أواسيه واواسي نفسي على هذه الحالة، لم ينظر مباشرة إلى عيني، كان يبعد وجهه في الجهة المقابلة، قال وهو يشد قبضة يده، لا يحك جلدك غير ظفرك ولا يوقف قمع غيرك إلا قوتك.

- ماذا تقصد يا خالد.؟! هل انتهى الأمر؟

- هم من أنهوه بمشاركة خبير خطوطهم، اما انا فسأجبرهم على الاعتراف بحقوقي.

- كيف؟

- سأهدده، سأجمع "شلة" من "الزعران" وأهدده.

- من أين تأتي بهم وأنت صاحب العقل والتعقل والمسؤولية؟!

- سأبحث عنهم.

- انا متأكدة بأنك لن تفعل ذلك، أنت خالد، تقول هذا فقط في لحظة غضب.

- وهل تعتقدين أن من يطلب حقه بالتعقل والمنطق لا يستطيع استعمال القوة؟ هل تستهينين بي يا نجوى؟!

- لا، لكن ذلك يحتاج الى ان تغير مجرى حياتك كلها، معناه ان تكره كل ما أحببت حتى الآن وتحب ما كرهته.

صمت قليلاً ثم قال: انا متأكد بأنني لم اكتب تلك الورقة، انا متأكد من ذلك، هل يمكن ان يكونوا قد عملوا على تخديري في لحظة ما، واجبروني على كتابتها؟! هل يمكن ان يكونوا قد استخدموا فناناً قادراً على تقليد خط يدي؟! هل يمكن ان يكونوا قد فعلوا ذلك يا نجوى؟! إنني أشك في نفسي، انني احاول ان أتذكر إن كانوا قد خدروني او اوقعوا بي، خبير الخطوط يقول بانه خطي، ماذا افعل؟!

- وهل يمكن ان يكونوا قد رشوه؟

- نعم، اكيد.

نهض من السرير، رايت بعض علامات الفرح لاكتشاف شيء جديد ثم قال : سأبحث عن خبير خطوط آخر.

لبس ثيابه جيداً وذهب إلى محام يقال بأنه اكثر المحامين خبرة

في رام الله، شرح له قضيته، أقنعه المحامي بأنه قادر على كسب القضية بكل بساطة وإنه يعرف خبير خطوط ممتازاً، وأنه سيعمل على فضح عبد الرحمن المعبي مقابل عشرة بالمائة من قيمة الأتعاب بالإضافة إلى اجرة خبير الخطوط.

فرح خالد كثيراً، فهو حينها كان يبحث عن كرامته كما قال، لم يفكر في العودة إلى المصنع فهو قد قرف "المعبي" ومصنعه، قام في نفس اليوم بتحديد موعد مع خبير الخطوط النابلسي عله ينتزع منه شيئاً، لم يخبره بأنه خالد، زاره في اليوم التالي رغم التصعيد في الانتفاضة، حين رآه الخبير، قال : اسمع يا ابني، هذه قضية وانتهت، إذا كان لديك قضية أخرى فساعدك.

- لكن يا حضرة الخبير أريد أن اتأكد ان كان الخط خطي.
- لا أعرف، التقرير كتبته وانتهى.
- هي يعني ذلك....
- لا يعني شيئاً، القضية انتهت.

انقطعت أحلامه في الحصول على اعتراف جانبي من خبير الخطوط، ظلت القضية معلقة دون جواب صريح وواضح، ظل معلقاً ما بين السماء والأرض، هكذا قال، وفي اليوم التالي ذهب إلى المحامي الكبير في رام الله فاذا به غاضب هو الآخر، لم يقبل اي من خبراء الخطوط الذين يعرفهم التدقيق في قضية خالد، أخبروه جميعاً بأن الانذار بخط خالد دون ان يشاهدوه.

- وما العمل يا حضرة المحامي؟ سأل.
- لا استطيع عمل أي شيء، انت مذنب.

بات خالد على قناعة بعدها بأنه مذنب، لا يمكن إلا ان يكون مذنباً، فالقيادة الموحدة بأطرافها الأربعة واللجان والنقابات والمؤسسات لم تستطع إثبات براءته، فما العمل؟!

قارب الشهر على الانتهاء فذهب إلى مصنع الشعب، التقى بعبد الرحمن المعبي وأخبره بأنه يريد تسوية القضية، جمع صاحب المصنع أعضاء مجلس الإدارة واستدعى بعض اعضاء لجنة المصالحة العامة

وقال خالد أمامهم : رغم انني لست متأكداً من انني كتبت هذه الورقة لكنني اعترف بانني كتبتها. وتوجه إلى العمال وأخبرهم ايضاً بما أخبره لمدير المصنع. وحين عاد إلى عبد الرحمن يخبره فيها أنه قام بما هو مطلوب منه، امره بأن يذهب إلى المخازن للمساعدة في الإشراف عليها، فوجيء خالد بما قاله عبد الرحمن، لم يتمالك خالد نفسه فصرخ : المخازن؟

- نعم، إلى المخازن.
- هل تغيّر عملي من الإشراف على أحدث الآلات لاصبح مساعداً للاشراف على المخازن؟!
- نعم، نحن نقبل بعقوبتك وظيفياً إلى هذا الحد فقط، وهناك أيضاً عقوبات اخرى مالية.
- لا يا سيد عبد الرحمن، إذهب أنت ومصنعك إلى الجحيم، سيأتي ذلك اليوم الذي تدفع فيه حقي، ما سبق منه وما لحق.

صرخ فيه وفي اللجنة العامة للمصالحة وخرج، صار بعدها اكثر انطواءً وغير قادر على التحكم بتصرفاته، عندما أخرج صباحاً إلى العمل يخرج هو وفضاء إلى الجبل، ضعف كثيراً ورأيت وجهه اكثر شحوباً ، طال شعر لحيته، وغارت عيناه وجف بريقهما، وسمرة وجنتيه جفت في مكانها، حاولت كل ما استطيع من اجل إعادة دمجه في الحياة بلا فائدة، يستمع للأخبار واسمعه ما يقال من تحليلات حول العصيان الوطني، حاول ان ينخرط من جديد في نقاشاته المعهودة ولكن حاجزاً كان يمنعه من ذلك، لم يكن من السهولة علي وأنا أعمل أن أعرف حقيقة ما يفكر فيه، صِرت أكثر حذراً في محاولته.

مر شهر، شهران قبل اعتقاله، لم يكن سهلاً الاتصال به حينها، فالنقب محاصر والمحامي والمفرج عنهم هم وسيلة الاتصال الوحيدة، أخبروني بأن خالداً منهمك في نحت الحجارة، تعلم هذه الهواية من زملائه السجناء، طلبت منه ان يرسل لي شيئاً منها فاذا به قد نحت طيراً على شكل حمامة، قبلتها، حملها فضاء ودار بها على أصحابه ليريهم كيف يصنع السلام من الحجارة، لم يرق لي إخبار فضاء انها

حمامة سلام خاصة بعد الأسئلة المتتالية له والتي كان من الصعب الإجابة عليها، فالسلام كما يفهمه الأطفال هو ان يطردوا الجنود من ارض فلسطين، لكن كيف لي ان اخبره باننا نطالب بدولة لهم ودولة لنا، في الوقت الذي يملكون فيه دولتهم؟! هل سيصبح الجندي مسالماً إذا ابتعد قليلاً عنا؟ كيف سيتحول شامير إلى رجل يحب السلام؟ هل رابين افضل من غيره في ضربنا؟...الخ.

أسئلة كثيرة طرحها وحاولت أن يجد الجواب من اصحابه فهم أقدر مني على توصيل المعلومات التي يعرفونها، لن استطيع نقل كل ما افكر فيه الى عقل طفل مثل فضاء، خشيت ان افسد عليه احلامه، وهكذا تخلصت من أسئلته هذه، وهكذا دفعته وبدون ان ادري إلى ان يأتيني بدفعة جديدة من الأسئلة، دعوت ربي ان يلهمني الصبر والمقدرة على الإجابة، أنا التي كنت أرسم أحلاماً للاعتناء باطفالي وتوسيع آفاق قدراتهم العقلية أجد نفسي الآن عاجزاً، أنا لست أخصائية في التربية وعلم النفس واشك في ان يكون هؤلاء الاختصاصيون قادرين على التعامل معهم وفق المرحلة السياسية التي نعيشها فما أسمعه منهم مجرد نظريات وثرثرات تفيدني أنا في النظر إلى نفسي، في البحث داخل ذاتي عن اسباب تكون شخصيتي بهذا الشكل، كنت احياناً افلح في ذلك وأحياناً اخرى لا استطيع، ودفعني ذلك إلى ان انهال بالاسئلة على من اعرفهم حتى استطيع التوصل للعوامل التي ادت الى تكوين شخصياتهم تلك، اما مع فضاء فلم تكن النصائح التي سمعتها توصلني للهدف الذي كنت أرجوه، طلبت منه مرة ان يرسم اي شيء، فاذا به يرسم طفلاً يحمل الحجارة ويقف فوق آخرين، سألته عن الآخرين فقال : العرب واليهود.

- كل العرب واليهود؟

- نعم.

- لماذا العرب أيضاً؟

- لإنهم لا يضربون حجارة مثلنا.

* * * *

كان مروان وعبد القادر قد عرفا بقضيته في المصنع وباعتقاله، ارسلوا لي فلوساً لتدبر أمرنا، خجلت كثيراً، كنا بحاجة إلى هذه الفلوس وغيرها لكن ذلك لم يكن سهلاً تقبله، لو عرف خالد بها لبكى، خالد لا يحب ان يشفق عليه احد، هكذا يرى الأمور واستطاع وضعي في دائرتها، اتصل عبد القادر بي هاتفياً في مكان العمل وسألني عن أحوالنا، أبديت خجلي، فقال: هذا أقل ما يمكن عمله من أجلكم، الآن، يجب ان لا يشعر فضاء بأي نقص في البيت، يجب الآن ان تقومي أيضاً بواجب والده اتجاهه. كنت ارسله الى المدرسة التمهيدية، أرجع قبله إلى البيت، نتناول الغداء معاً ونخرج لنتمشى قليلاً، ذهبنا الى الجبل عدة مرات لكني لم أكن قادرة على قول الأشياء كما كان يقولها خالد، لكن يبدو ان فضاء اكتشف ذلك وحده ووجد طريقه بين اصحابه.

زارنا أهل الحي وممن كنا نراهم في بداية المشكلة مع صاحب المصنع، سألوا عن اخبار جديدة تتعلق بخالد، سألوا إن كنا بحاجة الى اي شيء، مرت الأيام وقد اندمجت في مهام طبية وفي تجميع النساء في إطار خاص بالحي، لكن الجهد الاكبر كان في المساهمة في وضع برنامج نسوي للأرض المحتلة ووضع علاقات واضحة بين الاطار النسوي في الخارج وفي الداخل، إذ وبالرغم من الدور الهام الذي قام به الاطار النسوي في الخارج فان القاعدة الاساسية للمرأة وفي كل المجالات يقع هنا في الداخل ليتحول الداخل إلى المركز الاساسي للمرأة وما يقع في الخارج ليس سوى فروع له رغم التضييقات الواسعة التي تحد من الحركة وإقامة علاقات متوازنة ومستمرة مع اطر نسوية عربية وعالمية.

مرت الشهور الستة بتعبها ومرارتها وبحلاوة العمل فيها أيضاً والشعور بالمسؤولية، خرج خالد اكثر حيوية واكثر تصميماً على صنع السلام كما قال، وكانت علاقاته قد توثقت مع كثيرين، عمل بعدها في احد مكاتب الصحافة في القدس، يذهب في الصباح ويعود عند المساء،

وفي ايام الاضراب الشامل كان يطلع الى الجبل، كنا نذهب أحياناً معه، كان يجلس فوق صخرة ويقول : اتعرفين يا نجوى بانني بدأت اكره العمل الصحفي؟ سألته : لماذا؟ قال: لانني بدأت ابتعد عن الجبل والطبيعة.

مضت الشهور وهو يعمل في الصحافة، جاء عبد القادر لزيارتنا، وما فاجأنا في تلك الزيارة ان اقترح على خالد ان يذهب معه الى الكويت للعمل هناك، رفض خالد ذلك قائلاً : لقد عشت سته شهور في الصحراء، ومما جعلني احتمل هذ السجن انني كنت اعيش في ارضنا، فهذه صحراؤنا، اما هناك فماذا اعمل، لقد خرجت مشتاقاً للشجر والحجر والجبل والسهل، كدت انسى شكل الجبل وانا في السجن، وهل تريدني ان انساه في الكويت! انا يا عبد القادر لا اريد ان اكرر مأساتك؟

- وما هي مأساتي! إنني اعيش هناك اماناً رغم صعوبات الحياة.
- لكنني أعيش في بلدي، بين اهلي وحجارتهم، حتى السجون بنيت لنا.
- لكنك تدفع الثمن غالياً.
- وانت تدفع الثمن في الغربة.
- ادفعها مثلي إذا.
- لا، انا سعيد رغم وجود عبد الرحمن المعبي وأمثاله ورغم برودة صحراء النقب وحرارتها، لو كنت تملك بطاقة هوية لما اقترحت ذلك، انت تأمل ان نعيش معاً وانا كذلك، الاحتلال هو من يمنعنا من العيش سوية.

* * * *

- قتل خالد.

هذا ما أخبرني به الجيران بعدما جاءوا يتراكضون الى البيت، لا اذكر بعدها تفاصيل ما حدث لي، وجدت نفسي في المشفى، عشت حالة ما بين الحياة والموت، عشت عالماً لم أشاهده من قبل ولم ارغب فيه، إبر المهدىء منعت علي مشاعري الطبيعية اتجاه زوجي، عشت هذه الحالة نفسها حين رجعت إلى البيت، أحسست أن أناساً كثيرين حولي، الجميع يأتون ويسلمون علي، نساء تبكي وفتيات وشبان يهتفون ضد الاحتلال ويمجدّون الشهيد، وفضاء يجلس بين الرجال، يداعبونه حيناً ويكلمونه مثل رجل حيناً آخر، انظر حولي فأجد البيت ممتلئاً بالناس يتحدثون عن مقتل خالد، تشتد اعصابي وتهتز، تزول الغشاوة عن عيني، وصوت دورية في الخارج يقول : ممنوع التجول، أجد نفسي واقفة وانطلق مسرعة نحوهم حاملة الحجارة أو اي شيء أجده، يمسكني الرجال والنساء ويعيدونني، يأتي الطبيب ليعطيني مهدئاً، رجوته ان لا يفعل ذلك، رجوته وأنا اصيح باعلى صوتي، قال: لا تنسي أنك حامل.

سمعت كلامه، استطاع الطبيب ان يضعني في هذه الدائرة الى حد ما، صرت افكر: من الأفضل؟! ان اعبر عن مشاعري وأترك لهذه النفس ان تفعل بنفسها ما تشاء ام احافظ على حياة الذي احمله في بطني! أفلتُ من هذه الحالة عدة مرات لكن النساء حولي يعاودن تذكيري بالطفل الذي لم يولد بعد، خرجت من حالة الخدر الصناعية الى اخرى طبيعية، لم يستطع عقلي استيعاب ما يجري، عرفت ان دورية

عسكرية جاءت واخبرت احد الرجال بانه لا ضرورة لرفع الاعلام وتعليق صور خالد وكتابة الشعارات، خالد لم يمت شهيداً، خالد قتله الملثمون، لقد قتل بسكين. كدت اجن مما سمعته والطفل في بطني يقيدني، وددت في لحظة ان اقتل حتى نفسي مقابل ان اعبر عن مشاعري، كيف يقتل خالد من ملثمين كما يدعي الحكم العسكري وهو نفسه قد سجن ستة اشهر إدارياً؟ وزعت البيانات من كل الاطراف على الناس المجتمعين في البيت وخارجه، احد البيانات يوكد على دوره الريادي في صياغة وإرشاد القيادة الموحدة وصنع الاستقلال الفلسطيني حتى وهو داخل السجن، الاعلام علقت في كل زاوية، الشعارات زينت كل الجدران، يحاول الحكم العسكري تشويه خالد ميتاً وشهيداً، جميع من راه وهو ينزل من الجبل باتجاه البيت يؤكدون انهم رأوا سيارة تحمل لوحة صفراء يترجل منها اثنان ملثمان بكوفيات، إنقضا عليه وهربا، لحقت بهما سيارة ابن الجيران، لكن السفاحين هربا داخل "بيت ايل". جاءت مؤسسة "الحق" وطالبت بالتشريح بوجود طبيب مراقب، جاء التقرير بأنه قتل طعناً بسكين مزق شرايينه ورئتيه، وجاء تقرير للإذاعة الاسرائيلية وتلفازها ليؤكد بأن خالداً قتل بسكين يباع مثلها في أسواق رام الله.

كل محاولات التشويه لم تؤت ثمارها، إزدادت الوفود والجموع بزيارة بيتنا، منع التجول على حينا لم يمنع الحشود من التجمع، وتشييع الجنازة في منتصف الليل وبحراسة الدوريات لم تستطع منع أبناء الأحياء التي مررنا بها من الانضمام للجنازة، اضطرت الدوريات إلى الهرب ورأيت رام الله والبيرة يتحول ليلها إلى نهار، هتافات في الشوارع، هتافات من على اسطح المنازل، صافرات، حجارة، زجاجات فارغة وطلقات، كانت الجنازة عرساً، جفت دموعي منذ رأيت هذه الجموع، ولم أر دموعاً لفضاء وهو محمول على اكتاف الشباب، الكوفية على كتفيه ويصنع إشارة النصر بيديه، القيت الكلمات في الجمع المحتشد، القى فضاء إحداها، قال كلاماً حفظه عن ظهر قلب، لم أعرف من لقنه إياه، قال : خالد هذا الذي توارونه التراب الآن كان يحب الجبل

والسهل والشجر والحجر، كان يحب الناس، كل الناس، حلم ان يتحقق السلام والآمان لكل الناس، لهذا قتلوه، استخدموا لعبة مكشوفة في قتله، السلام الذي نريده يحتاج لسواعد ونحن السواعد وسنحقق دولتنا.

وجدت نفسي أزغرد مع مئات النسوة والشابات، زغردت وعندها انسكبت دموعي.

ليلتها، جاءني خالد، قال: لا تبك يا نجوى، لا تجعلي فضاء يبكي، إنني الآن في الجنة، لو تعرفين يا نجوى كم جميلة جنتنا، فيها كل ما شاهدته في الجبل واكثر من ذلك، هناك كثيرون مثلي، نذهب للسباحة والاستمتاع بين الخضار والفواكة والأشجار والطيور المغردة، كل شيء هنا جميل، أنا لا أعيش في القبر كما تعتقدين، انني في السماء، يجب ان تهتمي بنفسك وبفضاء وبأبننا القادم، إصعدوا إلى الجبل واستنشقوا نسيم بلادنا، تحياتي لكل الناس، آمل ان نلتقي ثانية يا نجوى.

لم يعد بيتنا بيتنا، قام الشبان والشابات بكل الواجبات، عرفت عدد سكان رام الله من خلال الجموع التي رأيتها، جموع اخرى جاءت من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب، اكدت لي كل الوفود استعدادها للقيام بواجبي وواجب اولادي واولاد خالد طيلة حياتنا، لكن ما استفزني وجود عبد الرحمن المعبي، جاء يسلم علي فرفضت، قال: يجب ان نبدأ من جديد. قلت: لا اريد ان اراك فانت تتحمل جزءاً من المسؤولية في ما حدث مع خالد.

- وأنا الآن أتعهد بتحمل كل ما تحتاجون إليه معنوياً ومالياً.
- ماذا ستفعل يا "معبي"! هل ستدفع حقوق خالد؟!
- سأدفع كل ما تطلبين ويطلب أولادك، انا لا اتكلم الآن عن حقوق، انا اتكلم عن واجبي واعتبر ان خالد لا زال يعمل في المصنع وبأجر مضاعف.
- لا أريد فلوسك، عشنا بدونها طوال الشهور الماضية، انت لم تدخل بيتنا قبل القضية التي لفقتها ولن تدخله بعدها.

تدخل بعض الرجال، تدخلت بعض الوفود لكني رفضت، عرضي

علي مبلغ عشرة آلاف دينار كدفعة اولى، ومرتب شهري، رفضت، ظللت مستفزاً من وجوده حتى خرج.

لم يتوقف عند هذه المرحلة، بل نشر نعياً في الجريدة وأعلن انه يتعهد باعالتنا وتعليم فضاء والطفل الذي في بطني حتى يتزوجا، رفضت الجريدة ان تنشر لنا اعلاناً برفض عرضه، ولا زلت افكر في كيفيية فضح تعهده.

الفصل الثالث

خرج فضاء قبل اعلان رفع منع التجول بقليل، جاء اصحابه وخرج معهم، ترددت في منعه، اردت ان يخرج كما يخرج اصحابه، ذهبت لشراء حاجياتي خلال الساعات الاربع المسموحة لنا، عدت الى البيت فلم اجده، سألت الجيران فقالوا بانهم رأوه في رام الله، أصبت بالقلق وانا اشاهد "دوريات" الجيش تجمع الصبيان يضربونهم ثم يأخذونهم نحو مركز الجيش، لا بد انهم اخذوه رغم صغره، فقلب الام دليلها، ذهبت لأسأل امهات اصحابه فلم اجدهن هناك، بت شبه متأكدة مما حدث، تركت خالداً عند الجيران ورغم صياح مكبرات صوت الدوريات مؤكدة فرض منع التجول، خرجت، مشيت في الشوارع القريبة حتى وصلت شارع نابلس، لم أر احداً غيري ووجدت نفسي أسير باتجاه مركز الجيش، عدلت عن الفكرة وعدت الى البيت، وجدت امهات اصحابه في انتظاري وقد تسلمن وصل دفع غرامة بسبب انتهاك اولادهن لمنع التجول. كان المبلغ المطلوب اربعمائة شيكل، اصبت بالصدمة وجلست امام البيت، فاذا بدورية الجيش تأتي مسرعة وتقف بجانبي، ترجل منها ضابط وقال: أليس فضاء ابنك.

- نعم انه ابني.

حينها دققت في الجنود الذين يركبون في الخلف فاذا بفضاء يجلس بينهم، نهضت مسرعة نحوه،اعترضني الضابط، صحت فيه ان يتبعد وينزل فضاء. قال: إذا اكان ابنك يعز عليك لهذه الدرجة لماذا لم تأت وتسألي عنه؟!

- لقد كان في البيت، ماذا فعل؟

- سلمينا بطاقة هويتك، واستلمي وصل الدفع ثم خذي ابنك.
- لن ادفع، قتلتم اباه ثم تريدوننا ان ندفع! لن ادفع.
- لا تصرخي، إعطني بطاقة هويتك.
- لم اعطه، القى بوصل الدفع وأنذرني في حالة عدم دفعه بمصادرة اثاث البيت، وسمح لفضاء بالنزول، حضنته ورحت ابحث في جسده ان كانوا قد مسّوه، فاذا بفضاء يبعد يدي ويقول: ماذا تفعلين بي، اخجلي، ألا ترين الناس حولي وابتعد عني داخلاً إلى البيت، ابتسمت مرة واحدة وظللت اراقبه وهو يمشي وكأنني اكتشفه من جديد.

بحثت عن وصل الدفع لأمزقه فلم أجده، سألت الواقفين فرفضوا اعطاءه لي ، قالوا بانهم هم الذين سيدفعونه، رفضت فكرة الدفع دون فائدة، غضبت، خرج فضاء، سأل عن سبب هذا الصوت الذي احدثناه، اصر هو الآخر ان لا ندفعه وإذا كان لا بد من الدفع فنحن الذين سنفعل ذلك لكن كل كلماتنا راحت هباءً.

أطل الليل، فتحت التلفاز لمتابعة الاخبار، طلبت من فضاء ان يجلس بجانبي، تطلع نحوي وقال بجدية: انا هنا مرتاح. كنت اتطلع نحوه وهو يتابع الأخبار، كان اكثر جدية وكأنه يستمع للاخبار بتقزز وهي تنقل ردود الفعل على قبول العراق للشروط الاميركية، رأيته ينهض من مكانه ويقترب من التلفاز، يدقق في الكلمات التي تقال وكأنه لم يسمعها جيداً، ابتعد قليلاً وهو يلقي بالسباب والشتائم، سألته ان يهدأ، تطلع في عيني ثم انزلقت دموعه، راح يبكي، امسكته محاولاً مواساته، ابعد يديّ عنه وانسل إلى غرفته، ناشدته ان نذهب لننام معاً في غرفتي، وهي الغرفة الوحيدة الملصقة نوافذها وبابها، فقال: اذهبي انت هناك، لن انام فيها بعد اليوم، سأنام في غرفتي وحدي.

أحسست بفضاء يكبر، رضعّت خالد حتى نام، لكن النوم جافاني، اغلقت التلفاز ورحت اتمشى بين غرفتي وغرفته، ثم جلست في الصالون ورحت افكر في ما يجب عمله مع فضاء، ماذا افعل إذا كان خالد قد ترك فراغاً بعد استشهاده ولا استطيع إشغاله! ماذا أفعل إذا كانت الشمس تغطى بغربال! ماذا أفعل إذا كنت لا استطيع رؤية الفضاء

بكامل مداه؟!

كنت اجد متعة، وانا أجمع ماء المطر من حوض وأسكبه على شجره العنب في ساحة الدار نهاراً، أبتل بالمطر ورغم ذلك اواصل العمل، اشعر بلذة الاستحمام الطبيعي، ورغم برودة الجو كنت قادرة على احتماله، احس بان ذنوب العصر يزيلها المطر، يبتل شعري وتتساقط حباته على وجهي وينساب الى جسدي، عشت الطبيعة وتمنيت ان تظل هكذا طوال السنة، تمنيت لو لم يمت خالد لنعيش الطبيعة معاً، عرفت لماذا كان يحب الطبيعة لتلك الدرجة، فالانسان تثار فيه مشاعره الداخلية ورغباته الجسدية والنفسية، تزال منه الشكوك والوساوس كما تزال الاوساخ عند الاستحمام، يرغب في ان يتحول الى عصفور يرقص ويقفز من مكان الى مكان وهو يغني انشودة الفرح، فجأة، اسمع صوت دورية جيش من بعيد فأنسل الى داخل البيت، وجدتها لعبة مسلية، لكن، ماذا افعل بالليل حين تحاصرني الجدران وصوت مكبرات الصوت، والليل ومنع التجول، كان صوت سقوط حبات المطر هوالمسلي لي طوال الليل، كنت قبلها في انتظار صفارة الانذار لكني لن اسمعها بعد اليوم.

وددت الخلاص من هذا الليل، قلت في نفسي: لأذهبن إلى الجبل عند طلوع الشمس، سأفعل كما كان يفعل خالد، اراقب الطبيعية واصبح جزءاً منها، سأصطحب فضاء معي، وسأصطحب خالد الصغير إذا كان الجو يساعد على ذلك، سأعيش الفضاء والطبيعة معاً، سأترك نفسي على هواها، سيفرح فضاء وسأفرح أنا ايضاً، فهواء الشتاء البارد يلامس الوجه واليدين والشعر وكل انحاء الجسم، يصيب الجسم بارتعاشه جميلة، يخترق الملابس والجلد ويعمل على تنظيف العقل والجسم من كل شائبه، الهواء الجميل يطهر القلب والنفس، تشعر حينها بانتعاش، تحاول الجري وتمشى بين الأشجار والنباتات والصخور والسهل، تنسى نفسك ، تنسى همومك وتصبح جزءاً من الطبيعة، لقد اكتشفت حقيقة خالد، فرغم التقدم في العمارة والبناء، فان هذه نفسها تعزلك عن العيش مع الطبيعة وفيها، فها هم يفرضون منع التجول

ليردونا الى الغرف المغلقة، ما ابشع هذا التناقض، فالحضارة مرتبطة بالارتداد الى داخل الغرف والشقق وتتشابك معها امراض العصر، بينما البداوة والبربرية كما يسمونها ترتبط بالأجواء الصافية وبالحجر وبالشجر، ودون ان نعاني من تلك الامراض، حتى الكبار في السن يقولون ذلك وإن بطريقة اخرى، يقولون بانهم كانوا يشغلون بعض الليل وطوال النهار في العمل العضلي، كانت لقمتهم مغموسة فعلاً بالعرق وبالدم، يرجعون في اوائل الليل، يتسامرون ثم ينامون مرتاحي البال، لا هموم ولا غيرها، كل مشكلة يجدون لها حلاً، فالحلول في ايديهم هم وفي دائرة علاقاتهم، اما الآن فانهم وحين ابتعدوا عن الاعتناء الارض وبالشجر وبالانعام وبالطيور خاصة، اصابهم الغم، فالطيور هي البركة وراحة البال، اذا ذهبت من البيت ذهبت النعمة وجاءت النقمة، فرغم انهم يملكون اليوم فلوساً اكثر، ورغم انهم لا يستعملون عضلاتهم كثيراً، إلا ان العودة إلى الغرف المغلقة تأتيك بكل مشاكل الدنيا صغيرها وكبيرها دون ان تجد لها حلاً: هموم المسافرين وهموم الاولاد وهموم لقمة العيش والمستقبل والأمان، كلها تندفع وتخترق الجدران دون إذن، إنهم يفرضون "الحضارة" علينا عبر مكبرات الصوت وقنابل الصوت والرصاص والسجن، في السجن تشعر بان حريتك مسلوبة وهم يسجنوننا في وطننا، ويسجنوننا في غرفنا بمنع التجول تارة وبالتحضر تارة اخرى، ما هذا التناقض، إنهم يجعلوننا غير طبيعيين، لنعاني من الامراض النفسية والاكتئاب والهموم، عندها سنصاب بامراض العصر، عصر البنايات المغلقة والغرف المغلقة والاحياء المغلقة والمناطق المغلقة، حتى وسائل الترفيه وتلك غير موجودة عندنا كلها مغلقة: الحدائق المغلقة، حدائق الحيوان المغلقة، "السينما" المغلقة، شواطىء البحر المغلقة، كل شيء مغلق، ما هذا الحال الذي نعيش؟! هل جاءت الحضارة لعقاب الانسان؟! لا، لا، جاءت لخدمتهم بينما عدونا يستعمل كل ادوات التضييق بدوية كانت ام حضرية، انظروا من الجهة المقابلة وشاهدوا الطبيعة، ذهبت أجيال وجاءت اجيال والصخور صامدة والشجر يكبر ويعلو في السماء

والجبل واقف والتراب يجدد ما ينبت فيه، الجبل يرفض ان ينام رغم اغراءات السهل، وفي الشتاء تنفجر الينابيع ويحلو لك ان لم تشرب منها ان تراقبها.

مرت تلك الليلة بصعوبة، رسمت خلالها احلاماً وددت تحقيقها في ذلك اليوم، صحوت مبكراً وقبل ان يُعلن عن رفع منع التجول كنت قد تناولت الفطور مع فضاء، رضعت خالدا وداعبته، كان الجو جميلاً والسماء شبه صافية والشمس ترسل اشعتها بين الغيوم القليلة المتناثرة هنا وهناك، خرجنا معاً، مررنا بالمنطقة الصناعية في البيرة وصوت الضجيج يملؤها، مطارق الحديد وآلات نشر الخشب وهدير السيارات، رغم ذلك كنت مسروراً، قال فضاء: عندما اكبر اريد ان اكون نجاراً، ثم بدأ بتغيير رأيه، قال: النجار يقطع خشب الاشجار ويصنعه، تعلمنا في المدرسة ان لا نقطع الاشجار، اريد ان اكون صباغاً او حداداً. ثم توصل لقناعة أخرى: اريد ان اعمل كل صيف عند اكثر من معمل ثم اقرر بعدها ماذا سأكون.

صعدنا الجبل رويداً رويداً، اشرفنا على قمته، تطلعت الى الشرق فكانت قرى تصعد مآذنها الى السماء، والى الغرب، فكانت أعمدة الإذاعة ترسل صفيراً حين ينساب الهواء من خلالها، وجنوباً تبرز الاشجار من بين البيوت وشمالاً تطل علينا "بيت إيل" بمعسكرها، جلسنا على صخرة مبتلة قليلاً، هبت نسمات الهواء الباردة، اغمضت عيني لأرى الطبيعة من داخلها، فاذا بطلقات تخترق السكون، خفت ان تكون هذه موجهة نحونا، دعوت فضاء لنرجع، رجعنا بهدوء، لكن مزاجي الذي تحسن وجدته يتغير فجاة، وجدت نفسي أقف مقابل شجرة زيتون وكأني اتحداها وانفر منها، رأيت اغصانها مثل ايادي الاخطبوط، تذكرت خالداً حين وجدوه مقتولاً تحت واحدة منها، تطلعت اليها، غضبت، اصبت بالانكدار ثم هززت رأسي عدة مرات ووجدت نفسي ابكي، نزلنا بهدوء وانا لا اود مقابلة واحدة اخرى، هذه الشجرة التي عاش عليها اجدادنا وآباؤنا، هذه الشجرة التي قضى الناس سنوات من عمرهم وهم يعتنون بها يوماً بعد يوم، سقوها بعرقهم ونموها بعضلاتهم، الاسرة

كلها، والحمولة والعشيرة، صغاراً وكباراً كانوا يخرجون لاستقبال ثمرة جهدهم وتعبهم، اكلو منها سنوات، اكلوا من حباتها ومن زيتها، ازالوا الظلام بنورها، واستدفأ الاحباب والأهل بخشبها في الليالي الباردة، هذه الشجرة المباركة بحبها وزيتها والتي أقسم الله بها، هذه الشجرة التي تغنى الشُعار باوراقها وبصمودها واصبحت إنساناً يعيش بينهم، انني أجدها الآن شيئاً مختلفاً، لقد قتل تحتها خالد، يا الله: لماذا يحدث كل هذا؟! لماذا اجد انفصالاً بيني وبينها، يا شجرة الزيتون، يا جبل الزيتون، يا بلد الزيتون، أنا جزء منك، فلماذا تفصلني عنك، كنت انت اغنيتي وكنت انا اغنيتك، كنت عشيقي وانا عشيقتك، انت الحب، انت الارض وانت الراية، رسموك على دفاترهم، وشموك على جلودهم، تفاخروا بافضالك، تباهوا بحباتك وحلفوا بحياتك، قلت: حضارات سادت ثم بادت، ذهب قوم وجاء قوم، توالت الغزوات وارتدت، سقيت الارض حتى ارتوت، زرعت الاشجار فأثمرت، اسوار عكا صمدت وجبال الخليل شمخت، وسهول مرج ابن عامر امتدت، نبت القمح وثماره حصدت، والزيتون يكبر وحباته نضجت، أكلنا الزيت والزعتر، تأكل منه وتتمخطر، تبسمل عليه وتكبر، والشجر يكبر يكبر، في الصيف يحلو ظلك وعندها النسمات تبرك، واسرار الناس تملك، أقسم الله باسمك وأزلنا الظلمة بزيتك، ولعبنا "المخفية" بحبك، فلماذا قتل خالد تحت شجرك! لماذا لم تمد له يدك، يا حافظ الاسرار اطرد الاشرار، كم حملنا زيتك وأشعلناه عند قبور الصالحين، كم خبأنا أوراق محبتنا في خبايا ساقك واغصانك، كم عبثناً صغاراً تحت فيئك ونسماتك، وكم رسمنا اسماءنا وقلوباً على جدران ساقك، لماذا لم تحم خالداً بعد ذلك! لماذا لم تحافظ على العشرة؟! لماذا يا زيتون بلادي؟! لماذا؟ لماذا تضع حاجزاً بيني وبينك؟ لماذا تجلعني أهرب منك؟! لماذا؟! لماذا؟!.

* * * *

تجمع الاطفال امام البيت، بينما كنا نحن الكبار نتحادث في

الداخل، ردود الفعل كانت غاضبة وقرفه على ما يجري، الجميع كان قد خدع بنسبة او باخرى، الخدع بدأت تنكشف واحدة إثر واحدة، الشمس بدات تظهر بشكل اكثر سطوعاً، الثلج يذوب وتبان الحقائق، وراح كل من الجالسين يعبر عن رايه بنوع من المرارة والحسرة والندب أيضاً:

- كنت أتوقع قبل الحرب بأنه وإذا ما بدأت فانني سأشهد تساقط الطائرات الحليفة واحدة واحدة وزرافات زرافات، كنت اتوقع ان تُمرّغ سمعة امريكا وحليفاتها في التراب العراقي والرمل الصحراوي، كنت اتوقع ان يقتل العديد من افراد مشاة الحلفاء وان تنغرس دباباتهم في الرمال وان تنساب الضفادع البشرية العراقية لتدمر آلة حربهم البحرية، كنت اتوقع ان تتدخل اسرائيل فتفك التحالف وتصبح فريسة وتتغير اتجاهات المدافع، وان تلعب الأردن وسوريا ومصر وايران دوراً غير الذي تلعبه الآن، تمنيت ان يرسم العراق خارطة اخرى للعالم العربي والعالم الاسلامي والعالم الثالث والعالم ككل. كل شيء تحطم "وطول عمرك يا زبيبة".

- حين تقدمت العراق بمبادرة السلام وزغردت الرشاشات وراحت اصوات الفرح تنطلق من كل بيت وشارع في العراق، رفضتها امريكا والحلفاء ودعوا إلى اسقاط نظام صدام حسين وحكومته، جاءت المبادرة السوفيتية العراقية فرفضت من الحلفاء قبل ان تمر ساعة على اعلانها، وفرضت شروط جديدة على العراق، وأعلنوا ان المعركة مستمرة في البر والبحر والجو، وان على القوات العراقية ترك اسلحتهم والهرب، توقعت حينها ان تثير شروط الحلفاء موجات من المظاهرات في كل الدول العربية والاسلامية من اجل وقف الحرب ومساندة العراق، توقعت ان تنظم القوات العربية في الخليج الى جانب العراق وتوجه قذائفها نحو الدبابات والعربات الغربية وجنودها الذين تجمعوا ما بين النهرين، كنت اتوق ان يحاصر الحرس الجمهوري الحلفاء ويقطع امداداتهم القادمة من الجنوب ويصب عليهم نار الغضب، كنت اتوقع ان تتحقق النبوءة بان يخسف الله باوسطهم وينادي اولهم آخرهم ثم يخسف بهم ولن يتبق الا

الشريد الذي يخبر عنهم، توقعت ان تتحقق النبوءة، بعد مرور الشهر وبعد ان لم يكل السلاح، وقذف الطير علينا وعليهم، يسل الرب سيفه من الاعداء وينصر الأولياء، فيقتلون مقتلة ما رؤي مثلها قط حتى ما تسير الخيل إلا على الخيل، وما يسير الرجل إلا على الرجل، توقعت ان الساعة اقتربت لما حسر الفرات عن جبل من ذهب واقتتل عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون فيقول كل واحد منهم، لعلي ان اكون انا أنجو، اولا ياخذ احد منه شيئاً. كنت اتوقع ان تذل امريكا ويمرغ انفها في التراب وبذلك نساهم نحن العرب في صناعة العالم الجديد وتغيير مساره بما يضمن حقوقنا ومصالحنا. أين الكيماوي يا جماعة؟! اين الكيماوي يا عالم؟! اين الكيماوي يا ناس؟!... صرخ.

- آمل وبما ان امريكا وحلفائها قد تستروا وراء الشرعية الدولية في تدمير العراق وتغيير مسار بنائه، آمل ن يكون الربط بين القضيتين قد تحقق فعلاً، آمل ان تاتي هذه الحشود وبعد ان أنهت مهمتها في الخليج ان تأتي غرباً، ان تتجمع الاساطيل في حوض المتوسط، وان تتوجه القوات البرية الى حدود اسرائيل الشرقية، آمل ان يفرض حصار اقتصادي كما فرض على العراق، وان تهدد اسرائيل ان هي لم تنسحب مباشرة وبدون شروط، آمل ان تتحقق الشرعية الدولية المسروقة عبر ما يزيد على أربعين عاماً، آمل ان اجتمع انا واخواني وأقاربي في كل البلدان ونحتفل معاً، ونذهب إلى المتنزهات بحرية ونتجول في الليل والنهار وان يكون لنا علم وهوية.

دخل فضاء، قطع الاحاديث وقال: هل صحيح يا ماما ما يقوله الاطفال؟ إنهم يقولون بأن العراق لم يهزم وما حدث انه يحضر نفسه من جديد للهجوم وتحرير ارضه ومن ثم تحريرنا؟ هل تؤمنين بما يقولون؟!

تلاقت العيون حزينة ومشمئزة، ورأيت دموعاً في المآقي وغصات في الحناجر. ساد هدوء، راحت العيون تتطلع نحو الأرض ثم خرج كل منهم إلى بيته.

الفصل الرابع

السلام...السلام...السلام، هذه الكلمة لم تعد محببة لي مطلقاً، إن متابعتي للإذاعة والتلفاز الاسرائيلي تكاد تغير طبيعة تفكير عقلي، تكاد تجنني، إن السلام بالنسبة لي يعني شيئاً عظيماً وكبيراً ومقدساً وانسانياً، لكن ما أسمعه منهم يعني شيئاً آخر. لم اكن وأنا في الكويت استمع للإذاعة الاسرائيلية أما الآن فيخيل إلي ان الاسرائيليين اكثر الناس استخداماً لهذه الكلمة ولكن في محاولة لافراغها من محتواها، إنهم يدعون كل الدول العربية للسلام ويدعون الفلسطينيين للسلام، ويدعون كل دول العالم إلى إقامة وبناء السلام، إنهم يريدون سلاماً بدون شروط مسبقة كما يدعي ذلك وزراؤهم، يريدون سلاماً مع سوريا بدون أن "يتنازلوا" عن الجولان، يريدون سلاماً مع لبنان بشرط ان يكون على شاكلة قطاع "لحد"، يريدون سلاماً مع الأردن يقوم فيه بدور الشرطي لمنع أية عملية ضدهم وليصولوا ويجولوا في ارضه، يريدون سلاماً مع الفلسطينيين يكون اساسه الاعتراف بأن للاسرائيليين الحق في هذه الأرض كما "وعد" الإله وبالتالي يخلصون للرب الذي منحهم هذه النعمة بحكم وجود اليهود على هذه الأرض، يريدون سلاماً مخلصاً لدولة اسرائيل ولكل يهودي في العالم وتحمل عذابات اليهود عبر التاريخ والندم على إبداء اي شعور عدائي ضدهم، يريدوننا ان نغسل دماغنا تماماً ونصبح شيئاً آخر، يريدوننا في النهاية ان نكون يهوداً دون ان يصادق الحاخاميون على ذلك.

إنهم يقلبون الحقائق تماماً، المجرم يصبح بريئاً والبريء يصبح مجرماً، نحن المجرمون لإننا نجبر هؤلاء "الأوفياء" على قتلنا، نحن

نجروء على المس باليهود وليس بايدينا فقط بل وفي داخل عقولنا، يا لها من وقاحة! نحن الذين نقوم الآن بالتحريض ضد السامية في العالم، نحن الذين دفعنا هيئة الأمم المتحدة لوصم الصهيونية بالعنصرية، نحن لا نسمح لليهود بحرية التجول في "أرض الله" التي "وهبهم" إياها، نحن الذين نعارض جمع شمل اليهود من شتى ارجاء العالم في البقعة التي "كُتبت" باسمهم منذ الأزل، نحن الديانة الأخيرة ونجرؤ على مهاجمة اصل الديانات وأولها، نحن الذي خضعنا في ديننا لكل ما أمرنا الله به بينما هم من كانوا يأمرون الرب، اليست هذه وقاحة؟! نحن البربريون والمتوحشون والبدائيون بينما هم الحضاريون والديمقراطيون والتقدميون.

ليست هناك اية مقاييس للسلام يقبلها العقل، فنقطة الانطلاق عندهم هي ان نعترف ب "الطابو" الذي حصلوا عليه من الرب، السلام عندهم ان نكون سقائيين وحطابين في خدمتهم، السلام معهم هو ان نقبل بالعيش تحت سيطرتهم دون إبداء اية ملاحظة تخدش "حياء" إمرأة او طفل أو محارب او مستوطن صادر الأرض، او حتى جندي قتل مئات الفلسطينين والعرب، مهمتنا واضحة: نسالمهم في أنفسنا مقابل ان يفكروا بأن يسمحوا لنا بالعيش في البيوت التي يقترحونها سواء هنا أم في الخارج، وكل شيء يخضع للقوانين الطارئة والمتغيرة، يا لها من وقاحة!

حاولت ان اهرب من أخبارهم، حاولت ان أفرح مع فرح فلم استطع، فالأخبار تضع حاجزاً بيني وبين ابني، وتضع حاجزاً بيني وبين زوجتي، وتضع حاجزاً بيني وبين نفسي، وتضع حاجزاً بيني وبين الانسانية التي أؤمن بها، أين الاصدقاء الذين كانوا في الكويت؟ وأين الأصدقاء والناس الذي يعيشون في الخارج؟ انني اجد نفسي محاصراً بسلامهم، لقد كنا نحدد شروط السلام وفق رؤى لا تمت مطلقاً لما يقوله هؤلاء، كيف يمكن إقامة السلام معهم؟! يحاولون ان يجعلوا مني مجرماً وأنا في الشارع، وأنا في البيت، وأنا في العمل، وأنا مع زوجتي وأبنائي، يا لها من وقاحة! لم أكن أصدق ان الشباب يقومون بضرب الجنود بالحجارة

بالشكل الذي اراه، لم اكن اصدق ان إنساناً يجرؤ على قتل إنسانٍ آخر حتى لو كان عميلاً، هذا ما اكتسبته من أخي خالد، لكن، عندما توالت لقاءاتي مع محمد سألته عن هذه الجرأة فقال بكل بساطة: ماذا تتوقع من أطفال يعيشون طوال حياتهم بين الرصاص والقمع والحجارة والدبابات والصواريخ؟! هل يمكن لهؤلاء ان يكونوا بشراً أبرياء؟ الحياة هنا محددة المعالم، فالسجن هو من جوانب الحياة، واذا لم تعشه تكون قد عشت الحواجز والتفتيش ومنع التجول ومنع دخول القدس، حياتنا هي في المناطق المغلقة وفي الغرف المغلقة، حتى حياتنا الطبيعية في المخيم لا يسمح لنا بعيشها، لم ينج بيت فيه من اقتحام الجنود، الوالدان ينامان في البيت بينما اولادهما ينامون على السطوح او في بيوت أخرى، ينامون وآذانهم مفتوحة على مصراعيها كيلا يداهمهم الجيش فجاة، الأم تتوقع أن يأتيها "خبر" ابنها في اية لحظة حتى لو كان نائماً في احضانها، الأب يتوقع ان يدفع غرامة مالية لأي سبب تافه، وربما تكون نهايته في السجن، الأطفال يلعبون عسكر وشباب، يحملون عصي في اياديهم على شكل بواريد، يضعون "الطناجر" او "سطول الماء" البلاستيكية على شكل خوذات، يتلفظون بكلمات عبرية وبعربية مكسرة ويهاجمون فريقاً آخر، يضربون بعضهم ويعتقلون ويقادون الى السجن الوهمي، هذه هي حياة الأطفال، فهل يمكن ان يكون هؤلاء مثل أطفال العالم؟! كيف يمكن مقارنة أخلاقهم مع أخلاق من تتوفر لهم الحياة الهانئة: المدرسة والحدائق وبرك السباحة والنوادي والألعاب والبيانو والموسيقى الهادئة وجو العائلة المستقرة؟! كلنا مدانون، لكن يجب ان نمر بالتجربة هذه من اجل الأجيال القادمة، يجب ان لا يكرروا تجربتنا، نحن ندفع الثمن من أجلهم، أتوقع ان استشهد في اية لحظة، ربما تستشهد انت دون ان تخطط لذلك حتى وانت في بيتك؟ ربما يستشهد اطفالك قبل ان يتعلموا اللفظ وقبل ان يعوا ما يحدث حولهم، أليس هؤلاء جديرين بالنضال من أجلهم، إذا كان الموت ينتظرنا وينتظر كل ما حولنا من شجر وبشر وهواء وماء فلماذا لا نطلب الشهادة؟!

سمعت كلماته، وبقدر ما دفعني لأن أجد لي موقعاً في النضال، دفعني للخوف على فرح وميسون التي ماتت واولادي الذين لم أرهم بعد، خفت ولا زلت أخاف، إنني أشعر بأمان اكثر مما كنته في الكويت، إنني اشعر بأمان الوطن خاصة بعد الأحداث التي جرت هناك لكنني لا زلت ابحث عن زاوية أعيش فيها آمنا، فالوطن مغتصب.

تزايدت الزيارات بيننا وبين نجوى كلما رفع منع التجول، صرت أجلس معها أكثر من قبل، صرت أداعب خالداً الصغير وأجالس فضاء، لاحظت نجوى عدم قدرتي على الانسجام تماماً مع الأوضاع التي اعيشها، قالت: إن كنت مثالياً ستقتل نفسك وإن استسلمت ستقتل غيرك إيضاً، اذا كنت تعرف الحقيقة التي تريدها فاسخر من الإذاعة الاسرائيلية وتصريحات رؤسائها، لا تدع نفسك تصدق بأن الحقيقة نعرفها من خلال وسائل اعلامهم، تعمق في تحليل ما وراء هذه التصريحات لتعرف هذه العقلية التي تقودهم حتى نستطيع مواجهتهم، لا تتوقع ان تظهر الحقيقة الحقة قريباً، فنحن نعيش حسب شريعة الغاب، ولا تعتقد أنك إذا عشت حياتك الطبيعة تكون مهزوماً، تحدث مع اكبر عدد من الناس، أقم علاقات اجتماعية بقدر ما تستطيع، فالناس هم المخرج الأساسي للمشاكل الشخصية والعامة، عمقنا الاستراتيجي يكمن في هذه العلاقات التي لم يستطع عدونا تقديرها، هم يحاربون اللجان الشعبية بينما مجتمعنا كله لجنة شعبية، كل شيء تقوم به مع الناس يكون في النهاية نضالاً، مساعدة الناس نضال، تسلية الناس نضال وحب الناس والثقة بهم نضال أيضاً، الأ يريد عدونا تحطيم بنيتنا الاجتماعية؟! إذن يكون المحافظة عليه نضالاً، ومن ثم نستطيع بناء الاقتصاد والسياسة والأمن، لا تنسى جيرانك واقرباءك وأهالي بلدتك، هذا هو بعدك الاستراتيجي، هذا هو البعد الدائم والمتطور والذي لن تهزه كل الطلقات والحرب النفسية التي يشنونها.

انظر إلى أخيك عبد القادر وبعدما حدث ما حدث معه، ألا يعيش الآن عند أقاربكم في الأردن، ألا يطلب منك ان تقوم بعمل تصريح له

ليستطيع زيارتنا؟ إنه يحاول الهرب من واقعه في الاتجاه الصحيح، كل شيء ذهب وبقي المجتمع، بناء المجتمع والمحافظة عليه هي المهمة التي لن تنتهي، إن الناس هم الذين يصنعون التاريخ والحضارة من خلال هذا المجتمع، لا تنسى يا مروان المجتمع وإن حاولت تناسيه فانك تعيشه وأنا أيضاً.

أنا الآن عاجز عن فعل شيء حقيقي للناس، أنا بحاجة الى الناس لأنسجم مع احلامهم المسروقة بالطريقة التي يعايشونها، أنا بحاجة إلى الأقارب والجيران، لقد كنت جزءاً من احلامهم ولكني أتيتهم أطلب المعونة، أنا بحاجة الى عبد القادر بقدر حاجته الي والى الاقارب، إنه يطلب فقط تصريحا من الحكم العسكري، أطلبه انا من اجل ان يزورنا فترة قصيرة، يفضي لنا ببعض همومه ويذهب بأمر الحاكم كما دخله أول مرة، ما هذا العذاب، لقد الغيت التصاريح ولن التقي به قريباً.

أنا اتعذب وفضاء يتعذب ونجوى تتعذب وعبد القادر أيضاً، عبد القادر لم يشأ ترك الكويت، ارتضى لنفسه ان يطلي بيته ويزينه ويؤثثه باللون الاخضر وسط الصحراء، اختار اللون الأخضر في الداخل بينما يجد كل ما حول البيت مثل نبات الصحراء الشوكي، كل شيء مثل الشوك، ارتضى لنفسه ان يبقى في الكويت وهو الذي اضاع سني شبابه فيها، لكن الظروف أخذت منه فلوسه ووظيفته، ظل يعيش على حلم بأن يرجع إلى الكويت من اجل نيل جزء من فلوسه ليبدأ من جديد في أي مكان آخر، ابناءه وبيته كانوا بانتظار فلوسه، لكن العراق سمح بأخذ جزء صغير من رصيده يعادل أقل من نصف راتبه شهرياً، قال في نفسه: هذا افضل من لا شيء أجده في عمان او اي مكان آخر، اقتربت الحرب وأصبحت الكويت شبه خالية، ظل بانتظار عودة سلطة الكويت، عندها فقط سيقدم استقالته، يطلب تعويضه ثم يبحث عن عمل جديد في مكان ما، ابتدأت الحرب دون وجود ملجأ أو مكان آمن، أصبحت حياته وحياة أسرته في خطر، ارتفعت اسعار المأكولات دون وجود سيولة نقدية فقرر هو وبقية أفراد اسرته مغادرة الكويت، لم تكن الخيارات سهلة فالطريق إلى السعودية خطرة، والطريق الى ايران عبر

البحر اكثر خطورة، لم يجدوا سوى الرجوع الى الاردن عبر العراق، كان الليل يومها مناسباً للسفر عبرالعبدلي فصفوان ثم البصرة، وقفت عيونهم على الدمار الذي لحق بها فقرروا وسط الغارات والانفجارات ان يواصلوا المسير الى بغداد، وصلوها عند طلوع الفجر، وجدوا في العاصمة العراقية مكاناً اكثر أمناً، فقرروا ان يرتاحوا هناك في النهار ويسافروا الى الأدرن ليلاً، لكن الأخبار التي سمعوها في بغداد اوردت بأن الحلفاء يقصفون كل شيء يتحرك على الطريق، فقرروا قضاء تلك الليلة في بغداد، كانت ليلة الثالث عشر من شباط، ولإن سيارتهم لا يمكنها ان تتسع لهم جميعاً، استقر الراي على ان ينام هو في السيارة وهم ينامون في ملجأ العامرية، لم ينم تلك الليلة وهو يستمع للبيانات المختلفة، سمعت صفارات الانذارات وبقي هو في السيارة، سمع انفجارات رهيبة في تلك المنطقة، اهتزت بغداد واهتزت سيارته وكسر زجاجها، أسرع باتجاه الواقفين علهم يدلونه على من يضمد له بعض جراحه، فوجيء بقولهم بأن ملجأ العامرية قد دمر، اسرع نحوه لكن الجيش الشعبي ولجان الدفاع المدني منعوه من ذلك، ظل في انتظار أي خبر عن اولاده وزوجته، تمنى لو كانوا قد خرجوا منه قبل قصفه، لكن دون فائدة، شعر بتعب وانحطاط في داخله، وقف، جلس، مشى، بكى، كلم نفسه طوال تلك الليلة وهو يراقب مئات الجثث دون قدرة على التعرف على أي واحد من ابنائه او زوجته، مر اليوم التالي في انتظار لا شيء، لم يفقد الأمل لحظة بانه سيلتقيهم في مكان ما وفي زمن ما، ولحين اتضاح ذلك طلب مني ان اقوم بعمل تصريح زيارة له، لا أعرف كيف تكون حالته النفسية الآن وسلطات الحكم العسكري في الكويت تطارد الفلسطينيين وتقرر طردهم دون الحصول على تعويضاتهم او توفيرهم في حسابات البنوك، ولا أعرف متى ستسمح لي السلطات بعمل التصريح، وهل سنظل نتحرك من مكان إلى مكان بتصاريح؟